ترجمات

دراسة مُقارَنة لنظريات نقض الاستعمار

تأليف: بريني ميندوزا

ترجمة: إسراء العيدي

راجعته وقدمت له وعلقت عليه

د. ملاك الجهني

تحرير

مهند الهويدي





وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ

فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ

وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ

وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

آية (٤٧)

دراســة مُقــارَنــة
لنظريات نقض الاستعمار

تأليف: بريني ميندوزا

ترجمة

إسراء العيدي

راجعته وقدمت له وعلقت عليه

د. ملاك الجهني

تحرير

مهند الهويدي

منصة إدراك المعرفية©

WWW.EDRAKMU.COM

تاريخ النشر: ٧ ربيع الآخر ١٤٤٤هـ الموافق ٢٠٢٢/١١/١م



تصدير

أراد سعيد في نهاية المطاف أن يقيم نظرية أصيلة مصدرها الوحيد هو العالم الثالث، وبينما كان يشكو لسنوات أنها غير موجودة؛ فقد بدا في مرحلة من المراحل أنه وجد صيغة من صيغ المعارضة لدى السكان الأصليين في العالم الثالث ممثلة في صيغة الاحتجاج الدرامي لدى المفكر رانجيت غوها.

– تيموثي برينان

ربما يفاجأ بعض قراء النص السابق برغبة المفكر العربي الراحل إدوارد سعيد ببناء نظرية تعود حصرًا إلى السكان الأصليين في المستعمرات السابقة والقائمة؛ إذ لا يوافق سعيد على فكرة زوال الاستعمار بصورة كُلِّيَّة، بما ذلك الاستعمار المباشر الذي مازالت تخضع له بعض مناطق العالم في لحظتنا الراهنة وليست فلسطين منّا ببعيد. ويبدو التطلع لنظرية صادرة عن العالم الثالث-مهما تكن هذه النظرية- أمرًا مستغربًا من سعيد؛ إذ لم يتمكن هو نفسه من الفكاك من شِباك النظرية الغربية، وطفق لسنوات يكتب وينتقد ويناضل ضد سياسات الدول الغربية وإسرائيل من داخل تلك الشباك ذاتها[١]؛ فقد كان سعيد من طليعة المروِّجين للنظرية الفرنسية في الأكاديميا الغربية، ثم هاجمها لاحقا في كتاباته ومؤلفاته، وعلى رأسها كتاب (العالم والنص والناقد)، لكن سعيدًا لم يتمكن من الانسلاخ عن تكوينه المعرفي الغربي

[١] انظر: الرحلة إلى الداخل: الأصلاني المنشق وقلق الهوية، لملاك الجهني، على الرابط:
https://atharah.com/the-journey-inward/

تمامًا، وبقي ذلك التكوين مؤثرًا في تصوراته وتنظيراته ومشروعه السياسي وإن بطرق مختلفة، ومتناقضة أحيانًا[2].

والمفارقة أن النموذج الذي قدمه سعيد لنظرية مأمولة من العالم الثالث تمثَّل في أعمال المفكر الهندي-البنغالي رانجيت غوها Ranajit Guha رائد دراسات التابع، رغم أن أعمال غوها لم تتحرر بالمثل من النظرية الغربية، وإن وظَّفها في النقد الموجَّه للاستعمار. وهذا ما يحملنا على التساؤل حول إغضاء سعيد عن دراسات نقض الاستعمار في العالم الثالث[3]؛ فقد بزغت أول خيوط المشروع النظري لنقض الاستعمار في أمريكا اللاتينية في التسعينات، أي تزامنًا مع نشاط سعيد الفكري وبدايات تبلور نظرية ما بعد الاستعمار المتفتقة عن كتابه الاستشراق. ولم يقتصر تأثير استشراق سعيد على منظري ما بعد الاستعمار وحدهم، فقد عدَّه بعض كُتَّاب نقض الاستعمار أحد الآباء الفكريين الأساسيين للنظرية. أي يمكننا القول إنها رافد انعكاسي آخر من روافد استشراق سعيد. ثم إن منظري نقض الاستعمار لم يكتفوا بمحاولة تأسيس نظرية متحررة من هيمنة المفاهيم والنماذج المعرفية الغربية، بل انتقدوا احتباس نتاج منظري ما بعد الاستعمار داخل سياج تلك المعرفة، ووصفوه بالعمالة غير المباشرة، كما ذكر كاتب المقالة المترجمة والمقدمة بين أيديكم.

وأشير بادئ الأمر إلى أنني سأوزع تقديمي لهذه المقالة على ثلاثة محاور، أتناول فيها: المساهمة المعرفية للمقالة، والتعقيدات النظرية المتصلة بمفهومها المحوري، وتعليقات أخيرة على الترجمة المختارة لمصطلحها الرئيس.

أما المساهمة المعرفية التي تقدمها هذه المقالة فتعود إلى تقديمها منظوراتٍ نقديةٍ مختلفةٍ للمركزية الأوروبية، إضافة إلى استعراض وفحص استراتيجيات بسط

---

[2] صدر الكتاب عام ١٩٨٣م، ووصِف بأنه نقدٌ للنقد نفسه.

[3] سبق أن اتُهم سعيد بتجاهل عدد من مفكري العالم الثالث الذين استفاد من أطروحاتهم النقدية في الاستشراق مثل العطاس وأنور عبد الملك، واستدرك سعيد هذا الأمر فذكرهم في كتابه الآخر الصادر في التسعينات (الثقافة والإمبريالية).

وتقسيم الهيمنة الاستعمارية على المستعمرات عند كل نظرية من النظريات موضع الدراسة. وأبرز ما يميز هذا الطرح هو أن الكاتب عالج مادته بمنهج تحليلي مقارن يحفر في عمق الأرضيات المعرفية لنظريات نقض الاستعمار بحثًا عن الروابط الخفيَّة الجامعة بينها، وكشفًا للأبعاد الضيقة والكونية لتلك النظريات؛ فقد تناولت كل نظرية -من النظريات التي حللها الكاتب- الاستعمار الأوروبي للعالم بوصفه أنواعًا مختلفة، وكيانات منفصلة، وحال اشتغالُ المنظرين باختلاف التجارب الاستعمارية دون إدراكهم للتشابهات الكبيرة بين تلك التجارب، ونتَج عن هذا النظر أن اختلفت معالجاتهم وأولوياتهم النظرية والسياسية تجاه الاستعمار.

ولا يعني هذا الغضّ من شأن النظريات موضوع المقارنة، فقد تمكن منظروها من الخروج عن المقولات التفسيرية السائدة للظاهرة الاستعمارية الأوروبية، وهَدْم التفرقة التاريخية بين الاستعمار الصادر عن بلدان شمال أوروبة (بريطانيا، وفرنسا، وبلجيكة، وهولندا) وذاك الصادر عن بلدانها الجنوبية (إسبانيا والبرتغال)، ووسّع بعضهم هذا التحليل ليتجاوز الفروقات الظاهرة بين الطابع العلماني للاستعمار الصادر عن بلدان الشمال الأوروبي، والطابع الديني للاستعمار الصادر عن بلدان الجنوب الأوروبي، ودفع هذا التحليل بتاريخ انبثاق ظاهرة الاستعمار الحديث سنواتٍ إلى الوراء ليجعل من سنة سقوط الأندلس ١٤٩٢البداية الفعلية لتأريخ استعمار العالم.

ولا بد من التنبيه إلى أن النظريات التي تناولها الكاتب لا تمثل كافة الجهد النظري المبذول في حقل يتناول ظاهرة بالغة الاتساع والتنوع كالاستعمار؛ فقد نشأت نظريات متنوعة تناولت آثار الاستعمار وموقع المستعمرات في العالم الحديث، منها: نظرية التبعيَّة التي ظهرت في أمريكا اللاتينية، ونظرية العوالم الثلاثة التي ظهرت إبّان الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، ونظرية ما بعد الاستعمار postcolonial theory التي بدأت بالتشكُّل بعد صدور كتاب الاستشراق لسعيد.

وأما ما يقع في دائرة اهتمام هذه المقالة فيتصل بالنظريات التي عُنِيت بنقض الاستعمار، وأعني تحديدًا نظريتين، إحداهما: أُسست على مفهوم الاستعمار الاستيطاني settler colonialism الذي يؤسس سيادته على انتزاع سيادة السكان الأصليين وتصفيتهم جسديًا وثقافيًا، والأخرى أُسست على مفهوم استعمار السُّلطة coloniality of power الذي يؤكد استمرار الاستعمار بعد رحيل الاحتلال، ويكشف عن الجانب الخفي من الحداثة والنظام العالمي الحديث (الاستعماري- الرأسمالي) المرتبط بالتقسيم الدولي للعمل بين الأوروبيين وغير الأوروبيين، ويمثل هذا المفهوم أحد أهم الأسس النظرية التي نهضت عليها نظرية نقض الاستعمار decolonial theory التي أُسست -كذلك- على مفهوم استعمار المعرفة، حيث لا تستعمر المركزية الأوروبية الأراضي والأجساد فحسب، بل تستعمر الحسَّ الوجودي للمستعمَرين وفهمهم للعالم.

وتُصنَّف هذه النظريات جميعًا تحت مسمى **نظريات نقض الاستعمار**، مع الإقرار بما بينها من تباينات؛ إذ تطرح كلُّ نظرية منها منظورها الخاص للاستعمار، والوسيلة المثلى لنقضه؛ وقد أحدث هذا بينها عددًا من الاختلافات الناتجة عن طبيعة النظرية -أية نظرية- ذلك أن النظرية بطبيعتها انتقائية وإقصائية، الأمر الذي نتج عنه سلسلة من الاستبعاد. وهذا ما ستتكفل المقالة بإيضاحه من خلال الدراسة المقارنة بين تلك النظريات، وإبراز المناطق العمياء في كلٍّ منها، والنقص الذي طبع بعضها، وظهرت المحاولات فيما بعد لتداركه وسدِّه.

وعودًا إلى المساهمة المعرفية التي تقدمها هذه المقالة، وهو تقديم منظور يختلف في توجهاته وأدواته عن النظريات النقدية الشائعة في العالم العربي وتلك التي أخذت بالبروز مؤخرًا في مجالنا المعرفي، ومنها نظرية ما بعد الاستعمار؛ ففي حين تتجاهل نظرية ما بعد الاستعمار سؤال المنهج في نقد الاستعمار، تعمل نظريات نقض الاستعمار لا على نقد الاستعمار فقط، بل تتجاوزه إلى مساءلة المنهج المتَّبع في نقده،

في الوقت الذي ما تزال تنطوي فيه نظرية ما بعد الاستعمار على المركزية الأوروبية التي تنتقدها؛ لعدم تحررها من المناهج الغربية في مقارباتها النقدية.

وبما أن الكلمة المحورية في هذه المادة هي **الاستعمار**، فلا بد من الإشارة إلى الإشكالات النظرية والتاريخية المحتفّة بهذه الكلمة؛ فقد اختلف المنظرون حول تحديد مفهوم الاستعمار colonialism في الإنجليزية، وتعددت تعريفاته، ولم تُفلح أيٌّ منها في تحقيق قَدْرٍ من الإجماع حولها، لأسباب وجيهة، أهمها: أن الاستعمار ظاهرة متعددة الأبعاد والدلالات، مما يَصِم كل محاولة للتعريف بالاختزال، ويجعل مهمة التعريف أكثر وعورة. ويتأكد هذا بالنظر إلى اختلاف التكوينات الاستعمارية وسياساتها من منطقة إلى منطقة، ومن عصر إلى عصر، ومن إمبراطورية إلى أخرى.

ومع ذلك فيمكن القول إن هناك ثلاث دلالات رئيسة تحضر في الاستعمار الحديث اتُّفِق حولها، وهي: **الهيمنة، والفرض الثقافي، والاستغلال.**

وفيما يخص المصطلحات الرئيسة للمقالة، فقد حرصتُ -أثناء تحرير الترجمة- على توحيدها في كامل المقالة، ومنها مصطلح الكولونيالي (colonial) المترجم بالاستعماري، ومصطلح الجندر (gender) المترجم بالنوع الاجتماعي، وأخيرًا المصطلح الذي يتصدَّر عنوان المقالة وهو: (decolonial) والمترجم بنقض الاستعمار.

ويقودنا هذا إلى الحديث عن الطابع الإشكالي للترجمات السابقة، وعلى رأسها ترجمة الكلمة المحورية التي تدور حولها النظريات السالفة الذكر، وهي كلمة الكولونيالي أو الكولونيالية المترجمة إلى الاستعمار أو الاستعماري، ذلك أنها تمثل بحد ذاتها ترجمة إشكالية، وهذا ما يُفضي إليه تتبع تاريخ دخول الكلمة وتطورها في المعاجم العربية الحديثة؛ إذ لم توجد كلمة استعمار في المعاجم المتقدمة إلا ما تعلَّق بالفعل (استعمر) المتصل بالآية القرآنية، أما المعاجم الحديثة مثل معجم (محيط المحيط) الصادر عام ١٨٦٧بيروت لبطرس البستاني، والذي جعل من (القاموس

المحيط) للفيروز أبادي مصدرًا لغويًا أصيلاً لمعجمه، وأدخَل فيه ما استجد من مصطلحات العلوم والفنون وغيرها، عدا كلمة الاستعمار فلم يُدْرَجها في معجمه، لكن الكلمة أُدخلت فيما بعد إلى معجمين، هما: المعجم المعروف بـ(المنجد في اللغة) الصادر في بيروت عام ١٩٠٨ بقلم الأب لويس معلوف اليسوعي، و(المعجم الوسيط) الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٠، وسأورد معاني كلمة الاستعمار في هذين المعجمين تباعًا ثم أعلق عليها.

وأبدأ بما أورده معلوف -وهو الضليع في اللاتينية ولغات أخرى- في (المنجد في اللغة) إذ جاء تحت مادة (عمر): «استَعْمَرهُ في المكان جعله يَعْمُره، كقوله: (استعمر الله عباده في الأرض) أي طلب منهم العِمَارة فيها. واسْتَعْمَرَت دولةٌ بلادَ غيرها اسْتِعْمَارًا: جعلتها مستعمرةً لها، فهي مستعمرة -والجمع- مستعمرات. وهو مُستَعْمِرٌ -والجمع- مُستعْمِرون، والعَامِر: السَّاكنُ الدار، ومكانٌ عامرٌ: مَعْمُور. يقال: تركتهم عامِرين بمكان كذا، أي مُقِيمين مجْتَمِعين».

كما وردت بعض هذه المعاني في (المعجم الوسيط) إذ جاء في معنى الاستعمار: «استَعْمَرهُ في المكان: جعله يَعْمُره. وفي التنزيل العزيز: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها). والأرضَ: أمدَّها بما يَعُوزها من الأيدي العامِلة. ودولةٌ دولةً أخرى: فَرَضَت عليها سيادَتَها واستَغَلَّتها».

وبالنظر إلى دلالات الاستعمار في قاموس (المنجد في اللغة) **لا نلحظ معنى سلبيًا للاستعمار، بل معنى مُحايدًا يتمثل في طلب العِمارة**، والمستعمرة فيه هي المكان المطلوب عمارته، أي أن الدولة المُسْتَعْمِرة تجعل الدولة المُسْتَعْمَرة مَحِلاً للتَعْمِير، ويتصل هذا المعنى المحايد بالجذور اللاتينية للكلمة[٤]، كما يومئ إلى ما يسمى

---

[٤] ترجع الجذور اللغوية لمصطلح الاستعمار (colonialism) إلى الكلمة الإنجليزية (colony) أي: مستعمرة، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية (colonus) ، وقيل إنها مشتقة من الكلمة اللاتينية (colona). فأما كلمة (colonus)

بالاستعمار الاستيطاني الذي يجيء معه المستعمرون بنية البقاء. مع ملاحظة المعنى الذي ذكره معلوف لكلمة (دولة)، والتي تمثل فيه الدولة الكيان السياسي لجماعة ما، وهي مُشعِرة بتساوي الكيانين من حيث التعريف على الأقل، على أن من معاني (الدولة) المذكورة في المعجم الوسيط: «مجموع كبير من الأفراد يقطن بصفة دائمة إقليمًا معينًا ويتمتع بالشخصية المعنوية وبنظام حكومي وبالاستقلال السياسي»، لكن صاحب (المنجد في اللغة) ذكر أنها «تطلق إجمالاً على البلاد فيقال دولة لبنان، الدول العربية، الهيئة الحاكمة في البلاد».

ويكشف تتبع معاني كلمة (الاستعمار) في هذين المعجمين التطور الدلالي لها؛ إذ اكتسبت الكلمة دلالة إضافية في المعجم الوسيط حيث أضيفت لها **دلالات الفرض، السيادة، والاستغلال**، وهي دلالات تومئ لما يسمى بالاستعمار الاستغلالي[٥].

ولا شك أن الفارق الزمني بين معجم المنجد والمعجم الوسيط ترك أثره في الدلالات المذكورة في الأخير، فقد أصدر معلوف معجمه زمن تفكك الدولة العثمانية وقبل

فقد ورد لها في معجم أكسفورد للاتينية ثلاثة معان، هي: المزارع، أو الفلاح، والمزارع المُسْتَأجِر، والساكن أو المستوطِن في مِسْتَعْمَرة رومانية أو لاتينية، والمُسْتَعْمِر (في مستعمرات أو مستوطنات من أماكن غير روما).

وأما كلمة (colona) فورد لها في المعجم المذكور معنيان، الأول: مُسْتَوطَنَةٌ أو مُسْتَعْمَرةٌ -مؤلفة- من المواطنين الذين جرى إرسالهم من روما، أو من الشعب الذي يؤلّف المُسْتَعْمَرة، والثاني: الأرضُ المرفقةُ بمزرعة، أو الملاصقةُ لمزرعة.

والفارق بين مصدري الكلمة السابقين في اللاتينية، أن الأول يتصل بالفاعل والثاني بالمفعول، وتجمعها الإشارة إلى الزراعة والسَّكن، فالأول يشير إلى القائمِ بهما والثاني إلى محلِّهِمَا أو موضُوعِهِمَا. والواقع أنهما مرتبطان ببعضهما البعض؛ فكلاهما «يشير إلى مكان العمل الزراعي، وقدامى المحاربين الذين خُصُّوا بأراض زراعية لزراعتها. الأمر الذي ساعد في عملية توسُّع الإمبراطورية الرومانية».

ويلحظ في المعاني السابقة إما إهمال الوجود السابق لسكان المستعمرات الأصليين، وكأن الأرض المستعمَرة خالية منهم، أو تجريدهم من التفاعل والفاعلية بكل أشكالها؛ إذ لا يشار مطلقًا -في المعنى الذي أشار إلى شعب المستعمرة- إلى عمليات الغزو والمقاومة وعلاقات الهيمنة بين المستعمِر والمستعمَر.

[٥] سيُظهر الكاتب في مقالته أن هذه التفرقة بين نوعي الاستعمار الاستيطاني والاستغلالي غير دقيقة في واقع الحال، وأنهما يشتركان في عدد من الخصائص.

الانتداب الفرنسي للبنان، في حين صدر المعجم الوسيط عقب رحيل المستعمرين من أجزاء من العالم العربي، وإبّان وجودهم في أجزاء أخرى كالجزائر، مما أنضج الدلالات السابقة وجعلها أكثر وضوحًا.

وما أبعد هذا من الدلالة الإيجابية لأصل كلمة الاستعمار في اللغة، والاستعمال القرآني، لكننا مضطرون للتعامل معها -بإشكالاتها- من الناحية الإجرائية؛ بسبب شيوعها من ناحية، وعدم وجود بديل يحظى بقدر من الإجماع حوله حتى الآن من ناحية أخرى، إضافة إلى أن البديل للترجمة العربية (الاستعمار) هو استعمال اللفظة الإنجليزية بالحروف العربية (الكولونيالية) وهذا الاستعمال لا يخلو من خلل كذلك، وسبق وأن أشرت في هامش سابق إلى أن الأصل اللاتيني للكلمة يعاني من إشكالات دلالية بالمثل.

وأما ترجمة الكلمة الإنجليزية التي تحتل موضع القلب في عنوان المقالة (نقض الاستعمار) decolonial فيتكون شقها الأول من كلمة الاستعمار مسبوقة بما يعرف بالإنجليزية بالبادئة وهي هنا de وقد ترجمت الكلمة بناء على هذه البادئة إلى إزالة الاستعمار، وإنهاء الاستعمار، ومنهم من ترجمها إلى نقض الكولونيالية محتفظًا باللفظة الإنجليزية للاستعمار ومكتفيًا بتعريب حروفها. ويرجع سبب الاختيار الأخير في الترجمة إلى الفارق الذي يخدم معان يتميز بعضها عن بعض ويتضح في صيغ الكلمة الإنجليزية ويغيب في العربية؛ إذ ترجمت جميع صيغ كلمة الاستعمار في الإنجليزية إلى (الاستعمار) ومن تلك الصيغ -مثلاً- colonization التي تستخدم غالبًا للإشارة إلى الاستعمار القديم، وcolonialism المستخدمة للإشارة إلى الاستعمار الحديث والمباشر أو المنتهي بخروج المحتل، في حين تستخدم coloniality للإشارة إلى الاستعمار غير المباشر أي الباقي بعد رحيل المحتل، علمًا أن استمرار الاستعمار بعد رحيل المستعمر، أو الاستعمار غير المباشر، أطلق عليه مصطلحات أخرى مثل الاستعمار الجديد، والإمبريالية. وتلافيًا للاحتفاظ باللفظة الأجنبية للمصطلح -مع إمكان ترجمتها- فقد اخترتُ ترجمته بنقض الاستعمار، نفيًا للتنافر

اللفظي في ترجمة البادئة للعربية والاحتفاظ ببقية الكلمة بلفظها الإنجليزي، واحترازًا من اختلاط الدلالات المختلفة المشار إليها في كلمة الاستعمار فقد أبقيت المصطلح باللفظة الإنجليزية بجانب المصطلح المترجم أثناء التحرير، أملاً في أن يسهم هذا الإجراء في تلافي المشكلات السابقة، كما علَّقت في الهامش على بعض المضامين التي ذكرها الكاتب، وميَّزت تعليقاتي عن تعليقاته بالإحالة عليها برمز النجمة (*) وأضفت بعض العبارات الشارحة في النص المترجم بين قوسين مربعين [....].

وأرجو المعذرة إن صادف القارئ قصورًا في مراجعة النص أو تحريره أو التعليق عليه، فمن نافلة القول إنه ما من عمل بشري إلا وهو عرضة للنقص والخطأ.

ملاك إبراهيم الجهني



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

دراسة مُقارَنة لنظريات نقض الاستعمار

تأليف: بريني ميندوزا

يُعالج هذا المقال نظريات نقض الاستعمار التي تشكلت في شمال أمريكة وأوقيانوسية وأمريكة اللاتينية، ويعقد مُقارنة بين نظريات الاستعمار الاستيطاني التي وضعها المؤرخون الأستراليون: باتريك وولف ولورينزو فيراسيني، ونظرية استعمار السُلطة التي طوّرها عالم الاجتماع البيروفي: أنيبال كيخانو، ويُحاجج كاتب المقال بأنّ نظرية الاستعمار الاستيطاني لوولف وفيراسيني؛ تُوجِد استبعادًا مفاهيميًا عمّا يُطلقان عليه اسم «الاستعمار الاستغلالي» (الذي يُزعَمُ أنه يميُز استعمار أمريكة اللاتينية) الأمر الذي لا يُعتبر هشًا من الناحية النظرية فحسب، بل غير دقيق من الناحية التاريخية أيضًا، كما أنّ ثُنائية الأرض/العمالة التي يعززها وولف وفيراسيني في نظريتهما الخاصة بالاستعمار الاستيطاني؛ تصمد فقط عندما تُقصِي أمريكة اللاتينية من التحليل، ويغدو هذا واضحًا في تحليلهما للدولة والعِرق وتمازج الأجناس، ومع ذلك، فإن كلتا النظريتين تتجاهلان النوع الإجتماعي/الجندر في توصيفها للاستعمار، وهي الفجوة التي كان على منظري نقض الاستعمار من أمريكة اللاتينية والمنظرين النسويين من السكان الأصليين سدّها، وتُحدد هذه الفروقات بين النظريات أيضًا شكل الطُرق التي يتصورون بها نقض الاستعمار.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار الاستيطاني، الاستعمار الاستغلالي، استعمار السُلطة، ثنائية **الأرض/العمالة**، الدولة القومية، العِرق، تمازج الأجناس، النوع الاجتماعي/الجندر، **نقض الاستعمار/ديكولونيالية.**

١. المقدمة:

شهدت الأكاديميا في العقود الأخيرة انتشارًا واسعًا للخطابات النظرية التي تعتمد في تحليلاتها على تجارب استعمارية مُختلفة حول العالم، سواءً في الغرب أو في غيره من المناطق، وأُشير هنا إلى الدراسات ما بعد الاستعمارية، ودراسات نقض الاستعمار الأمريكية اللاتينية، ودراسات الاستعمار الاستيطاني التي شهدت شيوعًا كبيرًا في الجامعات، وقد نتج عن هذا الانتشار الأخير للدراسات الاستعمارية؛ تخصصات وآفاقٌ أكاديمية مهنية، وسلسلة إصدارات، ومحاضرات، وفُرص تمويل بحثية جديدة [١](Moreton-Robertson 2016)، وأصبح **الاستعماري/الكولونيالي** اليوم من أهم المقولات التحليلية في كل من العلوم الاجتماعية والإنسانية مستبدلًا بذلك المقولات التحليلية الماركسية مثل: الطبقة الاجتماعية، والمقاربات النظرية مثل: ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية.

ولعل أبرز ما يميّز هذا النتاج الأكاديمي، أنه -ولأول مرة-؛ يكون أهم منظريه من السكان الأصليين، أو من أصول إفريقية، أو من عالم الجنوب بصفة عامة، حتى وإن كان النتاج الأكبر في الدراسات الاستعمارية ما يزال بين أيدي أحفاد المستعمِرين، ولتضاؤل التمويل نتيجة لخفض الميزانيات في الجامعات، فإن التخصصات التقليدية (**التي يقع معظمها تحت هيمنة الرجال البيض**) تُحاول السيطرة على مضامين التخصصات الجديدة؛ فاعترُِفَ لأول مرة، -مثلاً- بدراسات السكان الأصليين الجديدة حول الاستعمار الاستيطاني باعتبارها تخصصًا كاملًا في

[١] إيلين مورتون-روبينسون، «مقدمة: مواضع الانخراط في العالم الأول»

Aileen Moreton-Robinson, “Introduction. Locations of Engagement in the First World,” in *Critical Indigenous Studies* (Tucson: Arizona University Press, 2016), 3–16

جامعة برنستون **Princeton** إحدى أعرق الجامعات الأمريكية **(Moreton-Robertson 2016: 7)**، وإن دلّ هذا على شيء، فإنه يدل على انفتاح الجامعات الأمريكية ممثلة في ذروة نظامها الهرمي على دراسة الاستعمار، أو دراسة الطرق التي تسمح للبُنى الاستعمارية بالتوغل حتى بعد نيْل الاستقلال. وسبق أن شهدنا أمرًا مماثلًا مع الدراسات ما بعد الاستعمارية التي أصبحت اليوم موضع شك من طرف دراسات الاستعمار الاستيطاني **Settler Colonialism** ونظرية نقض الاستعمار الجديدة **Decolonial Theory**، فلا تُنافس هذه الدراسات الجديدة نظرية ما بعد الاستعمار أو تُسائل قيمتها في تشريح الاستعمار فحسب، بل تتهمها أيضًا بكونها عميلًا لا مباشرًا للمركزية الأوروبية نظرًا لشراكتها مع ما بعد الحداثة[٢]، وفي كافة الأحوال، فقد أحدثت مسألة الاستعمار اهتمامًا هائلًا، وأوجدت حاجة ملحة للأفكار على مستوى السوق الأكاديمي، ولا يبدو أنها ستتضاءل في الوقت الراهن، وقد يرجع سبب هذا الاهتمام المتزايد بالاستعمار في الشمال؛ إلى الحضور الكبير للأكاديميين القادمين من المستعمرات في الجامعات؛ إذ شهدت العقودُ الأخيرة التحاق أعداد كبيرة من السكان الأصليين والمهاجرين من مستعمرات سابقة بالجامعات الحضرية، كما لوحظ التحاق العديد من السكان الأصليين وأولئك الذين تنحدر أصولهم من إفريقيا بالجامعات، حتى في أمريكة اللاتينية، ولكن الأهم من هذا كله؛ هو التعبئة السياسية المتزايدة لهؤلاء حول العالم، وبخاصة منذ تسعينيات

[٢] رامون غروسفوغل ومنظرون آخرون ينتمون إلى نقض الاستعمار، قالوا أنّ ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار معًا؛ هم "نقد مركز أوروبي **للمركزية الأوروبية**" انظر خطاب غروسفوغل "مابعد استعماري أو نقض استعماري؟"

Ramón Grosfoguel (**2011**) and other decolonial theorists have said that postmodernism as well as postcolonialism are "Eurocentric critiques of Eurocentrism." See Grosfoguel's talk (uploaded 2014) "Postcolonial or Decolonial?" https://www.youtube.com/watch?v=3WUZTFIkb_4&t=39s (last accessed on 2 March, 2020).

القرن الماضي تزامنًا مع الذكرى المئوية للاكتشاف المُزَعم للعمليات الاستخراجية **extractivism** والصراع ضدها اليوم، غير أن هذه النظريات الجديدة المتعلقة بالواقع الاستعماري لا تنشأ في الأكاديميا بشكل حصري؛ إذ إن هناك العديد من المثقفين خارج الأكاديميا من السكان الأصليين أو الذين تنحدر أصولهم من إفريقيةَ، أو من أصول مختلطة ومختلفة، ينشغلون بالعمل الاستقصائي حول الاستعمار باعتباره جزءًا من مبادرة تسعى إلى مخالفة المحاولات الفردية للأكاديميين الغربيين، وإيجاد فضاءات بديلة لإنتاج المعرفة بالانطلاق من أنظمة معرفية مختلفة.

أما الميزة الأخرى الخاصة بالتوجّه الأخير في هذا المجال، فهي أن دراسات الاستعمار تميل إلى التركيز على التوسع الاستعماري الأوروبي الذي بدأ سنة ١٤٩٢ مع حلول البرتغاليين والإسبان في أمريكة، والذي امتد إلى مائة سنة أخرى (١٦٠٧) مع سيطرة الإنجليز والهولنديين والفرنسيين والألمان على مساحات كبيرة من شمال أمريكة، ثم على أوقيانوسية **Oceania** والهند في أواخر القرن الثامن عشر (١٧٨٨)، ويُمكن ضم الدراسات الجديدة المتمركزة حول الاستعمار الأخير لإفريقيا (١٨٧٠-١٩٠٠) إلى هذه القائمة الطويلة، وهي دراسات أعدّها باحثون من بريطانية وفرنسة وبلجيكة وألمانية وهولندا، إلى جانب الدراسات التي تبحث في استعمار هاواي من طرف الولايات المتحدة (١٩٥٩/١٧٧٨)، وأخيرًا وليس آخرًا؛ التطرق للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين في دراسات الاستعمار الاستيطاني السابق ذكره.

إن الاهتمام الحصري بالاستعمار الأوروبي يصرفنا عن النظر في تجارب استعمارية لم يكن الأوروبيون جزءًا منها بالأساس، أو كان حضورهم فيها عارضًا وعلى فترات متقطعة، وأحد هذه الأمثلة: التجارب الاستعمارية التي عايشها الأسترونيزيون **Austronesians** في المناطق التي تُعرَف اليوم بتايوان، والتي كانت تحت احتلال

هولندا والصين وإسبانية في فترات متفرقة، وهي نفس التجارب الاستعمارية التي كابدتها إندونيسية والفلبين وتيمور الشرقية وماليزية، وبلا شك: الفيتنام، فقد تكبّدت الفيتنام ألف سنة من الاستعمار الصيني (**من سنة ١١١ قبل الميلاد إلى سنة ٩٣٨ بعد الميلاد، واستمر الاستعمار بصفة متقطعة؛ حتى أواخر القرن الخامس العشر**)، وفي سنة ١٨٨٧ وقعت الفيتنام تحت الاحتلال الفرنسي الذي استمر حتى سنة ١٩٥٤ [٣](**Shih 2015**)، ومن وجهة نظر السكان الأصليين في آسية: لم يكن الاستعمار مؤسسة تخص الأوروبيين فقط؛ إذ يرجع غياب تجربتهم الاستعمارية عن دراسات ما بعد الاستعمار ونقض الاستعمار إلى شكل من المركزية الأوروبية التي ما تزال متأصلة -عن غير قصد- في هذه النظريات، وقد أوجد هذا النقد اهتمامًا أكبر بالدراسات التي تفحص الاستعمار غير الأوروبي، بل قاد إلى التفكير في ضرورة مراجعة النظريات الاستعمارية التي تحصر دراساتها في الاستعمار الأوروبي[٤].

---

[3] Shu-mei Shih, “World Studies and Relational Comparison,” in Modern Language Association of America PMLA 130, no. 2, (**2015**): 430–38.

شو-ماي-شي، "**الدراسات العالمية والمُقارنة العلائقية**".

[٤] في المُقارنات النظرية بين نظريات ما بعد الاستعمار، ونظريات نقض الاستعمار، فإنّ منظري نقض الاستعمار مثل: كيخانو (٢٠٠٠)، دوسل (١٩٩٥)، وغروسفوغل (٢٠١١)؛ يحاججون بأن المحددات الزمنية مهمة في دراسة الاستعمار وحالة الاستعمار. تعتبر سنة ١٤٩٢؛ نقطة مصيرية في تاريخ العالم، لأنها ساهمت في خلق امبراطوريات استعمارية عالمية شملت العالم بأسره لأول مرة. من هذه الناحية، فإن ما بعد الاستعمار؛ مخطئة بتركيز تحليلها على تجربة الاستعمار البريطاني في الهند والشرق الأوسط، لأنها تتجاهل ثلاثمائة سنة سابقة من الاستعمار الإيبيري.

For more, see my “Colonial Connections” (2017). Anibal Quijano, “Coloniality of Power, Eurocentrism, and Latin America” in Nepantla: Views from the South 1, no. 3, (2000): 533–80; Enrique Dussel, The Invention of the Americas (New York: Continuum, 1995); Ramón Grosfoguel, “Decolonizing Postcolonial Studies and Paradigms of Political Economy: Transmodernity, Decolonial Thinking, and Global Coloniality,” Transmodernity 1, no. 1,

ولم يعد الجدل كامنًا في الاهتمام الكبير بالإمبراطوريات الأوروبية البحرية على حساب الاهتمام بالتوسعية القارية **continental expansionism** للإمبراطوريات غير الأوروبية فقط؛ إذ يُمكننا ملاحظة تقسيمات أخرى داخل الدراسات الاستعمارية الجديدة، ومن بينها تلك التي تركز على تجارب الشعوب التي عانت من الاستعمار الإيبيري*، وتلك التي استُعْمِرت من طرف أوروبيي الشمال الغربي، خاصة البريطانيين، أما استراتيجية التقسيم الأخرى، فهي التفريق بين التجارب الاستعمارية الخاصة بالعالم الأول، وتلك الخاصة بدول العالم الثالث (**Moreton-Robertson 2016**)، وبعبارة أخرى، لم يكن هناك تحليلًا أكثر دقة مما طرحه شو ماي شي **Shu-mei Shi** (Shih 2015) الذي انشغل بفحص العلاقات الإمبريالية الداخلية والتقاطعات بين التجارب الاستعمارية المختلفة[٥]، فقد احتفظت الدراسات الجديدة حول الاستعمار بالرؤية الطبقية الإمبريالية الخاصة بالشمال، والتي ترى في الإمبراطورية البريطانية أولوية، في حين تتجاهل الإمبراطوريات الإيبيرية[٦]،

(2011): 1–36; Breny Mendoza, "Colonial Connections," Feminist Studies 43, no. 3, (2017): 637–45.

* قلت: نسبة إلى إيبيريا وهو اسم يطلق على البلاد التي تضمها شبه جزيرة إيبيريا، وتعود التسمية إلى المؤرخ اليوناني هكتيوس الملطي زمن الإمبراطورية الرومانية، ولا يحدد الاسم الذي أطلق في ذلك الوقت كيانا جغرافيا واحدًا، بل مجموعة غير متجانسة من الكيانات والأعراق، وتضم شبه جزيرة إيبيريا ما يقارب ثمانين بالمائة من إسبانيا، لذلك تسمى أيضًا بشبه الجزيرة الإسبانية، كما تضم شبه الجزيرة الإيبرية البرتغال التي تشاركت مع إسبانيا في تسيير الرحلات البحرية إلى ماكان يسمى آنذاك بالعالم الجديد (الأمريكتين)، واتحدت إسبانيا والبرتغال لاحقًا تحت التاج الإسباني وضمّت إليها مستعمرات إسبانيا لتشكلا معًا إمبراطورية واسعة.

[٥] يقترح شو ماي شيه؛ تحليلًا مُقارنًا بخصوص دراسة الأدب العالمي. الفكرة هُنا؛ هي وضع الأدب العالمي في التاريخ العالمي، ومحاولة فهم كيف يحدث هذا في مجال علاقات القوة.

[٦] تأريخ الشمال الأطلنطي؛ يملك تاريخًا طويلًا من محو الاستعمار الإيبيري من تاريخ الحداثة والرأسمالية. ولم يكن المنظرون الماركسيون وما بعد الاستعماريين؛ استثناء. فبالنسبة للإيبيرية الماركسية، انظر أعمال ميكسينس وود Meiksins Wood (**2003**). أشار البعض إلى ممارسة محو التاريخ الإيبيري من الحداثة والاستعمار؛ بوصفها إيبيرية **Iberiantalism**، إشارة إلى الاستشراق **Orientalism**، أو أشكال البحث التي تحرف وتشوه تاريخًا أو

وهذا الفصل بين مجالات وموضوعات الدراسة الذي يميّز الجامعة الغربية ما يزال مستمرًا، ويمنعنا من النظر في التداخل العلائقي والاستمرارية التاريخية التي تجمع بين أنماط الاستعمار المختلفة، أما الإشكالية الأخرى التي غالبًا ما تُذكر، فهي استعمال الدراسات الاستعمارية بوصفها أرضية لتشكيل الهويات التي لا تبقى مرتبطةً غالبًا بتعريفات استعمارية فقط، بل تُنتج أشكالًا جديدة من الأصولية، وتقسيمات تُفضي إلى تقسيم المشروعات الأكاديمية، وسياسات المقاومة الخاصة بذوات استعمارية مختلفة **(Hokowithu 2016)**[٧]، ومن بين هذه الحالات: المكسيكيون الأمريكيون **Chicanas** في أمريكة الذين ضيّقوا على سكان أمريكة الأصليين بادعاء ملكيتهم لهوية السكان الأصليين **(Hartley 2012)**.[٨]

ثقافة ما. يمكن للإيبيرية أن ترجع إلى الأسطورة السوداء **Black Legend**. لقد تمت صياغة هذا المصطلح في القرن التاسع عشر، ولكنه يملك تاريخًا أطول من ذلك يرجع إلى القرن السادس عشر؛ مع ظهور إسبانية بوصفها القوة الأوروبية العالمية الأولى. لقد حاولت الأسطورة السوداء تصوير إسبانية باعتبارها قوة استعمارية متخلفة ومتوحشة خارج تاريخ الحداثة والرأسمالية. كما أنها سعت من أجل أن تسلب إسبانية العضوية من جماعة الأمم الأوروبية.

See my “Crítica al debate contemporáneo sobre los imperios” (2014). The Spanish scholar Maria Elvira Roca Barea (2016) offers us a new interpretation of the Black Legend from a conservative perspective. See: Ellen Meiksins Wood, Empire of Capital (London & New York: Verso, 2003); Breny Mendoza, Ensayos de Crítica Feminista en Nuestra América (Mexico City: Editorial Herder, 2014); Maria Elvira Roca Barea, Imperiofobia y leyenda negra: Roma, Rusia, Estados Unidos y el Imperio español (Ediciones Siruela, 2016).

[7] Brendan Hokowithu, “Monster: Post-Indigenous Studies,” in *Critical Indigenous Studies*, ed. Aileen Moreton-Robinson (Tucson: Arizona University Press 2016), 83–101.
بريندان هوكوويذو، الوحش: الدراسات ما بعد الأصلية.

[8] George Hartley, “Chican@ Indigeneity: The Nation-State, and Colonialist Identity Formation,” in *Comparative Indigeneities of the Americas* (Tucson: Arizona University Press, 2012), 53–66.

وإلى جانب ذلك، فنادرًا ما تنشغل الدراسات ما بعد الاستعمارية التي تفحص التجربة الاستعمارية في الهند والشرق الأوسط؛ بالاستعمار الإيبيري في تحليلها للمسار التاريخي للاستعمار، كما أننا لا نجد اهتمامًا ملائمًا بالاستعمار الإيبيري في دراسات السكان الأصليين في كندا والولايات المتحدة الأمريكية وأوقيانوسية، إذ إن هُناك نوع من الإقليمية وقِصَر النظر التاريخي يمنعنا من ملاحظة الأصول المُشتركة، والعمليات المتداخلة، والتقارب بين المسارات الاستعمارية المُختلفة.

ومن اللافت أن الدولة القومية ما تزال وحدة التحليل الرئيسة لنظرية الاستعمار الاستيطاني، رغم الانتقادات القوية الموجهة إلى دولة الاستعمار الاستيطاني، ونتيجةً لرسم حدود معينة لهذه الدراسات؛ فقد حُجبت المسارات التاريخية، والعلاقات المتبادلة، والخصومات الواقعة بين مختلف الإمبراطوريات الاستعمارية، وحتى الإمبراطوريات السابقة على الاحتلال[٩]، إذ ليس هُناك أي تحليل تكاملي لأوجه التشابه والعلاقات المُشتركة بين مختلف الخلفيات التاريخية، بل غالبًا ما تتبع هذه التقسيمات والحدود المجال الانجليزي والإسباني بصورة لا إرادية؛ فقد أسس المؤرخ الأمريكي دارين ماكماهون **Darrin M. McMahon** مجموعة من الخصائص والمميزات لكل مجال من المجالين الاستعماريين السابقين، فجعل هذا من المجتمعات والثقافات وحتى من المشروعات **الاستعمارية/الإمبريالية** الإيبيرية **والأنجلو-ساكسونية** مختلفةً ومتناقضةً جذريًا (**McMahon 2004**)[١٠]، ومما لا شك فيه، أن هذه التقسيمات الزائفة مُرتبطة بأسطورة الاستثنائية الأمريكية التي تنسبها أمريكة

[٩] تحليلات الإمبراطوريات الأصلية، ومُشاركة السكان الأصليين في الاحتلال الإسباني؛ ما يزال يتم التغاضي عنها في نظريات نقض الاستعمار ونظرية الاستعمار الاستيطاني.

[10] Darrin M. McMahon, “The Other Transatlantic Tie: The Hispanosphere,” Orbis 48, no. 4, (2004): 657–72.

دارين ماكماهون، الرابط الأطلنطي الآخر.

لنفسها بتفرد رهيب تفْصلُ به نفسها عن التجارب الإنسانية الأخرى، لتجعل من تجاربها أكثر تفوقًا من تجارب البقية، وينتج عن هذه التقسيمات؛ مشاكل تحليلية وعواقب سياسية كثيرة، ستكون موضوع هذه الورقة.

وما سأعرضه في الصفحات الآتية هو تحليل علائقي مُقارن لنظرية **نقض الاستعمار/الديكولونيالية** المُستلهَمَة من كُتاب أمريكة اللاتينية، مثل الكاتب: أنيبال كيخانو **Anibal Quijano** ونظرية الاستعمار الاستيطاني التي نظّر لها مفكرون من أمريكة الشمالية وأوقيانوسية، من سكان أصليين وغير أصليين، كما أنني لا أنوي القيام بدراسة جينولوجية أو إثنوجرافية لهذه المقاربات النظرية، ولا التأسيس لمن يقدم بينها أفضل الوصفات لمُناهضة الاستعمار، فما يهمني هو أن أستكشف أو أكشف، وأيضًا أن أُنشِئ روابط بين هذه النظريات، وهي روابط لا تظهر عندما تتشكل النظريات باعتبارها كيانات مُنفصلة، ويتحقق ما ذكرت من خلال مراجعة أربعة مجالات رئيسة:

- **أولها**، المقارنة بين مفهوم «استعمار السُلطة» **coloniality of power** عند أنيبال كيخانو، ومفهوم الاستعمار الاستيطاني عند باتريك وولف **Patrick Wolfe** ولورينزو فيراسيني **Lorenzo Veracini**.
- **وثانيها**، المُعالجة المُختلفة التي تستعملها كل نظرية لفكرة العرق والاختلاط العرقي.
- **وثالثها**، المكانة التي يحتلها تحليل النوع الإجتماعي/الجندر عند كلتا النظريتين.
- **وأخيراً**، التصورات التي تَحملُها كل نظرية عن نقض الاستعمار. وأتمنى أن أُبيّن من خلال هذه التحليلات كيف أن العمليات المُختلفة للاستعمار مترابطة تاريخيًا.

٢. نظرية نقض الاستعمار والاستعمار الاستيطاني:

يُعرَّف الاستعمار الاستيطاني من قِبل كل من باتريك وولف ولورينزو فيراسيني -اللذين ينحدران من أصول أوروبية-: بوصفه نوعًا من الاستعمار الذي يُمارسه مُحتلون من الخارج قدِموا بنيّة سابقة بالاستقرار الدائم في أرضٍ لا تخصهم (**Veracini 2010**[11]**; Wolfe 1999**[12]**, 2001**[13]**, 2016**[14])، وتنطوي غاية الاستيطان على أن يكون مشروع هجرتهم **(إن صحت هذه التسمية)** مُلازمًا لتهجير السكان الأصليين للأرض، فهمُ مستوطنون قدِموا ليَبقوا من خلال تحقيق هدفهم المُلح بتأسيس نظام سياسي جديد، وفي هذه الحالة، لا يُعتبَر المستوطنون ممثلون لإدارة استعمارية في الخارج، كما أنهم لا يشعرون بضرورة الخضوع للإرادة الملَكية المهيمنة في العواصم الحضرية، فقد قَدِموا أساسًا بهدف إقامة نظام سياسي جديد ومستقل، وبعبارة أخرى، كانت تبدو علاقتهم بالحاضرة هشة منذ البداية، وكما فيراسيني **(2010)**، كان المستوطنون يحملون السيادة معهم، كانوا يحملونها في أجسادهم. ويؤسس المستوطنون سيادتهم على كل أرض تطؤها أقدامهم، ويسعون في طريقهم

[11] Lorenzo Veracini, *Settler Colonialism. A Theoretical Overview* (Great Britain: Palgrave MacMillan, 2010).

لورينزو فيراسيني، الاستعمار الاستيطاني. لمحة نظرية.

[12] Patrick Wolfe, *Settler Colonialism and the Transformation of Anthropology* (London and New York: Cassel, 1999).

باتريك وولف، الاستعمار الاستيطاني، وتغير الأنثروبولوجيا.

[13] Patrick Wolfe, "Land, Labor, and Difference: Elementary Structures of Race," in The American\Historical Review 106, no. 3, (2001): 866–905.

[14] Patrick Wolfe, *Traces of History: Elementary Structures of Race* (London: Verso, 2016).
باتريك وولف، آثار التاريخ: البنى الأولية للعِرق.

هذا إلى سحق سيادة السكان الأصليين، وبما أن هدفهم هو إيجاد وطن جديد أو جماعة مكونة من الرجال البيض حصْرًا؛ فإنهم لا يتخلون بشكل كامل عن المجتمعات التي هجروها، بل تجدهم في مُحاولة دائمة لإعادة خلق هذه المجتمعات في المكان الجديد.

ويُفرّق وولف وفيراسيني بين المُستوطن الغاصِب، والمُهاجر أو اللاجئ الذي يصل إلى أرض مُحددة مُسبقًا بوصفها دولة قومية سياسيًا؛ فغاية المُهاجر واللاجئ هي أن يندمج في نظام سبق تأسيسه، لا أن يؤسس نظامًا جديدًا، وفي هذه الحالة، يُعد اللاجئ نقيضًا للمُستوطِن الغاصِب؛ لأنه يصل قسرًا وبلا تخطيط سابق إلى أراضٍ جديدة، وعلى عكس المُهاجر واللاجئ فإن المُستوطن الغاصِب؛ يوجِد فضاءاته بواسطة الحرب سعيًا إلى احتلال مناطق جديدة، كما أنّ غايته هي: تأسيس مجتمع جديد من المُستوطنين، وسيكون من المنطقي أكثر لو قارنًّا المُستَعمِر الاستيطاني مع عملاء استعماريين آخرين مثل الغازي **conquistador**، أو الوكيل المُكلف بشؤون السكان الأصليين **encomendero** في إسبانية الاستعمارية.

ومن اللافت ألاّ يعقد كل من وولف وفيراسيني مُقارنة بين المستوطن الغاصِب من شمال أوروبا، والغازي أو الوكيل الإسباني، فلربما كان ذلك منطقيًا بصورة أكبر نظرًا إلى كون المُهاجر واللاجئ شخصيات حديثة العهد، وأعتقد أن هذا الصمت حول الغازي الإيبيري راجعٌ إلى التقسيم الصارم الذي يُمارسه وولف وفيراسيني بين الاستعمار الاستيطاني وما يطلقان عليه الاستعمار الاستغلالي **Exploitation Colonialism**: وهو شكل من أشكال الاستعمار المتميز أساسًا بالاستغلال والتحكم في أعمال السكان الأصليين، فبالنسبة لهم، ومن خلال تتبع مسار الإيبيرية، فإن الاستعمار الاستغلالي هو ما يُعرِّف ما وقع في **أمريكة اللاتينية/آبيا يالا Abya Yala**، وبالتالي فهو أمر مختلف وغير مرتبط بالاستعمار الاستيطاني.

وهذه الاختلافات المفاهيمية بين أشكال الاستعمار تفتح فجوة نظرية واسعة بين الاستعمار الذي وقع في أمريكة الشمالية وأوقيانوسية، وذاك الذي وقع في أمريكة اللاتينية، كما تُنشئ هذه الاختلافات تعارضات ثنائية **binary opposition** يصعُب تذليلها بين الاستعمار الاستيطاني والاستعمار الاستغلالي، وأقول إنها مُستعصية لأن هذا التقسيم هو ما يمنحُ نظرية الاستعمار الاستيطاني تناسقها الداخلي، ودون هذا الاختلاف لا يُمكن للمبادئ والفرضيات التي تنطلق منها النظرية أن تستمر، فلنرَ إذن كيف تشكّلت هذه النظرية، فكما هو الحال مع كل بُنية ثنائية، فإن نظرية الاستعمار الاستيطاني تُضفي قيمة مُختلفة على كل جانب من جانبي الثنائية، وفي هذه الحالة، يُنظَرُ للاستعمار الاستيطاني: بوصفه أكثر أشكال الاستعمار عُمقًا وتأثيرًا، لأنه -كما يقول وولف- (١٩٩٩)، قائم على مبدأ إبادة السكان الأصليين (**يُزيل كل العوائق التي تعترض طريقه**)، أما الاستعمار الاستغلالي: فقائم على استغلال عمالة الشعوب الأصلية، ولهذا، فهناك مصلحة من حماية السكان الأصليين، مما يعني الإبقاء على العوائق في قلب المجتمع الجديد، في حين يتطلب الاستعمار الاستيطاني اغتصاب أراضي السكان المحليين وتصفيتهم جسديًا وثقافيًا، كما يتطلب استيراد الأفارقة العبيد بهدف العمل على الأراضي المُصادرة، ولهذا تُشكل الأرض أهمية بالغة للاستعمار الاستيطاني في حين يُشكل التحكم في العمل الأهمية الكُبرى للاستعمار الاستغلالي؛ ففي هذا النوع من الاستعمار يُعتبر استيراد العبيد عاملًا تكميليًا، كما لا يعد عملهم بديلًا لاستغلال عمالة السكان الأصليين.

وإذا ما أخذنا بالتعريف الذي يقترحه وولف وفيراسيني للاستعمار الاستيطاني، فينبغي أن نفترض أن الحالة الاستعمارية في أمريكة اللاتينية تختلف بشكل جذري عنها في مجتمعات الاستعمار الاستيطاني، وبما أنّ الأرض ليست عاملًا رئيسًا فيها، فعلينا أن نفترض أن المُستعمِر الإيبيري لم يأت بدافع إنشاء نظام سياسي جديد، بل بدافع استخراج أكبر قدر من الثروات التي تجعله أكثر غنى في وقت وجيز، ثم

العودة من حيث أتى، ومستعمرٌ كهذا سيكون مهتمًا بالحفاظ على العمل لفترة مؤقتة وحسب، وعلى عكس المُستوطن الغاصب، سيشكل المستعمرون الإيبيريون أقلية أمام أكثرية أهلية مهزومة حُصِرت آنذاك في العبودية، وبإمكانها أن تتمرد في أية لحظة، أما في الاستعمار الاستيطاني، فيجري تطويق السكان الأصليين ثقافيًا وجسديًا، إذ لا يُستعملون في العمل، فهم في نظر الاستعمار غير موجودين بكل بساطة، وبالنسبة للمستوطن الغاصِب، فإن اختفاء الساكن الأصلي أمرٌ ضروري ولازم لمشروع إعادة التأسيس، وهو مضطر إلى تخيُّل الأراضي الجديدة باعتبارها أراضٍ مُشاعة **terra nullius**، ثم تحويل هذا الخيال إلى حقيقة، كي يتمكن من شرعنة قوته على الأراضي المُغتصبة، ويُصبح بهذا الساكن الأصلي الشرعي و«الحقيقي»، ويُقال إن فكرة اختفاء الساكن الأصلي كانت مغروسة بعمق في عقول المُستوطنين الغاصبين، حتى أن مفهوم الاستعمار الاستيطاني لم يكن مُرتبطًا في البدء أساسًا بعمليات الاحتلال والاستعمار، وهذا يعني أن نشاط المستوطنين تحقَّق عقليًا، أي في أراضٍ لم تكن مأهولة حتى في أذهان منظريها [15](**Veracini 2013**)، وبالنسبة لوولف وفيراسيني، لم تكن هذه هي الحال في أمريكة اللاتينية (**كما أنهم يضُمَّان أحيانًا الأرجنتين إلى تحليلاتهم**).

ويَضعُنا هذا الفصل الصارم بين الاستعمار الاستيطاني والاستغلالي أمام العديد من المشكلات التاريخية والتحليلية، فمن ناحية، من السخيف أن نظن أن استغلال عمالة السكان الأصليين في الاستعمار الاستغلالي ستتحقَق بمنأى عن اغتصاب الأراضي، فمن الواضح أن استغلال العمالة كان وما يزال مسبوقًا باحتلال الأرض، ولم تكن

[15] Lorenzo Veracini, "'Settler Colonialism': Career of a Concept," in Journal of *Imperial and Commonwealth* History 41, no. 2, (2013): 313–33.

لورينزو فيراسيني، الاستعمار الاستيطاني: رحلة مفهوم.

السيطرة على الأرض وعمالة السكان الأصليين ضرورية للعمليات الاستخراجية، مثل التنقيب وحسب، بل كانت أساسية في الفلاحة أيضًا، لأنها المسؤولة عن ضمان إعادة إنتاج العمالة المحلية واستمرارية كل من الغازي والوكيل، ومن البديهي، أنه من وجهة نظر الساكن الأصلي، فإن طبيعة السيطرة على أرضه لم تُغيّر شيئًا من حقيقة نهبها، سواء أكانت السيطرة من طرف المستوطنين الذين كانوا مستقلين نسبيًا عن عواصمهم، أو من طرف الوكلاء الذين كانوا تحت إمرة النظام الملكي.

وتُعَد شانون سبيد **Shannon Speed** من بين قلة من المفكرين من السكان الأصليين في أمريكة الشمالية الذين ينتقدون ثنائية **العمالة/الأرض** التي نظّر لها وولف في مفهومه عن الاستعمار الاستيطاني؛ إذ تُشير سبيد إلى أن الاستعمار الاستيطاني لا يُميّز الاستعمار في أمريكة اللاتينية فحسب، بل إنه كان في أمريكة اللاتينية أشد تخريبًا؛ فقد كان السكان الأصليون مضطرون إلى العمل على نفس الأراضي التي نُهبت منهم (**وما زلنا نرى هذا إلى اليوم**)، باختصار، كان السكان الأصليون في أمريكة اللاتينية عُرضة للعمالة، ومصادرة الأرض معًا [16] **(Speed 2017: 785)**. لذا، بالنسبة لسبيد، فإن الاستعمار الاستيطاني: ظاهرة مسَّت نصف الكرة الأرضية، ولها استمرارية ونظائر تاريخية بين شمال وجنوب أمريكة.

كما أنه من السخيف أيضًا، أن نفكر أنه لم يكن في نية المستعمرين الإسبان البقاء، فقبل قرن من وصول مستوطني أوروبا الغاصبين، وصل الغزاة الإسبان ولم يُغادروا، وقد قاموا، في الحقيقة، بإعادة تأسيس مجتمعات سياسية جديدة في المناطق الجديدة التي صادروها، وهي نفس المجتمعات التي ورثناها اليوم، ودون أن ننسى

[16] Shannon Speed, “Structures of Settler Colonialism in Abya Yala,” American Quarterly 69, no. 4, (2017): 783–90.

شانون سبيد، بنى الاستعمار الاستيطاني في آبيا يالا.

أن الاستعمار الإيبيري: هو ما مهّد الطريق لمستوطني أوروبة الشمالية الغاصبين؛ فقد تشكل الاستعمار البريطاني بالأساس أثناء منافسته ونزاعه مع الاستعمار الإيبيري في أمريكة، أي عن طريق غزو وإعادة استعمار المناطق التي احتلها الإسبان والفرنسيون في أحيان كثيرة، وبعبارة أخرى، لولا قيام الاستعمار الإيبيري لما قام الاستعمار البريطاني **(أو حتى الفرنسي)**، ولهذا نجد العديد من أوجه التشابه والتناظر والاختلاف بين الاثنين، أي أن ما يجمعهما هو أكثر مما نتصور.

وللتمثيل على ذلك، فقد مارس كلٌّ من استعمار شمال أوروبة وجنوبها منطق الإبادة الجماعية في حق السكان الأصليين، حيث أباد الإسبان الشعوب الأصلية بشكل كامل في جزر الكاريبيان، أما في بقية مناطق أمريكة، فقد أحدَثوا انخفاضًا هائلًا في نسبة السكان من خلال الحرب، والعمالة الإجبارية، والهجرة القسرية، ونشر الأمراض المُعدية، كما أن كِلا المستعْمِرَيْن، على اختلاف فتراتهما، لجأ إلى الاستيراد الجماعي للعبيد السود بديلاً لعمالة السكان الأصليين، وإنه لمن المُهم أيضًا أن نذكر أنّ الدراسات الجديدة توصلت إلى أن عمالة السكان الأصليين مُرتبطة إلى حدٍّ ما بالاستعمار الاستيطاني في أمريكة الشمالية، على عكس ما يُروَّج له حتى الآن **(Reséndez 2017; Bossy 2016; Gallay 2002)**[١٧]، وهُناك ما يكفي من الأدلة التي اُستخرجت لتؤكد أن عبودية السكان الأصليين كانت مُلازمة لعبودية السود، أما

---

[17] Andrés Reséndez, *The Other Slavery. The Uncovered Story of Indian Enslavement in America* (Boston, Mariners Books, 2017)

اوندريز ريزيديز، العبودية الأخرى. القصة المخفية عن عبودية الهنود في أمريكة.

; Denise I. Bossy, “The South’s Other Slavery: Recent Research on Indian Slavery,” Native South 9, (2016): 27–53;

دينيز بوسي، عبودية الجنوب الأخرى: بحث حديث في العبودية الهندية.

Alan Gallay, *The Indian Slave Trade: The Rise of the English Empire in the American Sout*h, 1670-1717 (New Haven: Yale University Press, 2002).

السبب وراء إغفال عبودية السكان الأصليين حتى هذه اللحظة فهو أنها كانت تتم سرًا، وتقدِّر هذه الدراسات أن عدد الذين عانوا من العبودية خلال فترة الاستعمار يتراوح بين مليونين وخمسمائة، إلى خمسة ملايين من السكان الأصليين (**Reséndez 2017: 5**).

وفي المستعمرات الإسبانية، كانت هناك مجموعة من البنود التي شرعنت عبودية السكان الأصليين حتى بعد حظرها سنة ١٥٤٢، وانتُزعت هذه الشرعية بالحرب، واستُعمِلت في حال لم يعتنق السكان الأصليون الديانة النصرانية، أو كانوا جزءًا من طقوس الفداء، أو كانوا عبيدًا قبل وصول الإسبان، أو إذا قبض عليهم من طرف هنود آخرين، وفي حال ما إذا صُنفوا باعتبارهم من آكلي لحوم البشر*، ولإثبات أنهم لا ينتمون إلى أي خانة من الخانات السابقة، كان على العبيد من السكان الأصليين أن يذهبوا إلى محاكم إسبانية ليستردوا حريتهم، وهو أمر قد يستغرق سنوات عديدة، وقد رُحِّل المئات من هؤلاء إلى إسبانية، أو إلى مناطق أخرى من المستعمرات الإسبانية، ولم يتمكن أغلبهم من الرجوع إلى قُراهم، ولا استرجاع حرياتهم[18] (**van Deusen 2015**)، كما أنه من المهم أيضًا، أن نُؤكد أن عبودية

*قلت: آكل لحوم البشر (cannibal) من المصطلحات المركزية في نظريات الاستعمار وما بعد الاستعمار، لإبرازه التفوق العرقي للبيض على السكان الأصليين، مع ملاحظة أن الكلمة لم تكن تطلق على ممارسة طقسية وجدت لدى بعض المجتمعات، بل كانت من المظاهر المميزة والمؤثرة في الخطاب الاستعماري، وأصبحت هذه الكلمة مرادفة للهمجي والبدائي أو (آخر أوروبا) كما يذكر الباحثون الذين عزوا أول إطلاق لهذا المصطلح إلى اليوميات التي سجلها كولومبس في رحلته إلى العالم الجديد، مع تشكيكهم في صحة ما نقل عن هذه اليوميات، وأنه تعرض للتحريف. وتُعلّق آنيا لومبا على المصطلح بأنه كان مسوغًا للاستيطان الأوروبي والممارسات الاستعمارية الوحشية على أولئك الهنود من سكان العالم الجديد، ثم عُممت هذه الصورة الجديدة لتُستهلك في العواصم الاستعمارية، فجلب مارتن فوربشر أحد رجال الأسكيمو ووضعه للعرض في إنجلترا، وقد ضُمنت هذه الصورة في الأدب كما في مسرحية العاصفة لشكسبير.

[18] Nancy E. Van Deusen, Global Indios. The Indigenous Struggle for Justice in Sixteenth Century Spain (Durham: Duke University Press, 2015).

السكان الأصليين لم تكن تقتصر فقط على العبيد «**القانونيين**»، بل استمرت بشكل واسع وخفي في أمريكة اللاتينية لتمتد حتى هذا اليوم.

وسواء في الشمال أو في الجنوب، كانت المتاجرة بالعبيد من الإناث والأطفال من السكان الأصليين هي الأكثر انتشارًا، وبحسب المؤرخ الأمريكي أوندريز ريزنديز **Andrés Résendez** فهي شبيهة إلى حدٍ كبير بالتجارة الجنسية التي نعرفها اليوم، فقد كان يُتقرّب من النساء آنذاك بغرض الاستغلال الجنسي، ومن أجل التكاثر البيولوجي لليد العاملة، وما هو مُثير للاهتمام هنا: هو أنه في القرن التاسع عشر أصبح بعض السكان الأصليين من شمال أمريكة أنفسهم تجار عبيد، ومنهم جماعات الأباتشي **Apaches** والكومنشي **Comanches** واليوت **Utes** والنافاجو **Navajos**، إذ تاجروا بالهنود الآخرين الذين خُطفوا في المناطق المكسيكية؛ ليُباعوا في الولايات المتحدة! (**Reséndez 2016: 7**)، ويوضّح هذا الروابط التاريخية التي طالما وُجدت بين هذه الأمم، كما يوضّح التداخل الحاصل في العمليات الاستعمارية، وبعبارة أخرى، فإن الفرضية التي يدّعيها الاستعمار الاستيطاني بعدم وجود علاقة لعمالة السكان الأصليين باطلة، ذلك أنّ الاختلافات المُفترضة مع الاستعمار الاستغلالي: هي اختلافات في الدرجة لا في الجوهر، وباختصار، فإن هذا الفصل الصارم بين الاستعمار الاستيطاني والاستعمار الاستغلالي لا طائل منه.

نانسي فان دوسن، كفاح السكان الأصليين؛ من أجل العدالة في إسبانية القرن السادس عشر.

وفي المُقابل، ما الذي تُضيفه إلينا نظرية نقض الاستعمار الخاصة بأمريكة اللاتينية؟

إذا ما قارنَّا بين مفهوم استعمار السُلطة **coloniality of power** عند أنيبال كيخانو **Anibal Quijano** ومفهوم الاستعمار الاستيطاني عند باتريك وولف **Patrick Wolfe**، سنُدرك سريعًا أن تصور كيخانو كَوْنيٌّ، ولا يغلب عليه الطابعُ الإقليمي الذي نلحظه في الاستعمار الاستيطاني؛ فبالنسبة لكيخانو، يُمَيّز استعمار السُلطة، بوصفه نمطًا للقوة العالمية، العالمَ بأسره من سنة ١٤٩٢ وحتى الآن، وتُعتَبر هذه السنة تاريخًا تأسيسيًا لعالم جديد؛ لأنها شهدت بداية الحكم الاستعماري الذي شمِل الكوكب بأسره لأول مرة في التاريخ، ولا يعني هذا أن كيخانو لم يُمَيّز بين الآثار المُتباينة التي خلفها الاستعمار الأوروبي في مختلف مناطق العالم، فقد وضّح في أعماله الاختلافات بين أنماط الاستعمار الأوروبية في الهند، وفي أماكن أخرى خارج أمريكة، وفي حالة أمريكة، يعترف كيخانو بتباين الآثار على الشعوب الأصلية والسوداء، واختلاف الترتيبات السياسية بوصفها نتيجة للاختلافات بين الجنوب والشمال، إلّا أن تصوره عن أمريكة كَوْنيٌّ؛ إذ لم يكن مُهتمًا برسم حدود هذه التجارب وكأنها غير مُترابطة أو أن بالإمكان تحليلها بمعزل عن نظيراتها، كما لم يمنعه هذا من الانتباه إلى خصوصيات كل تجربة في السياق الجامع للتجربة الاستعمارية الأوروبية، ولكن يبقى الفصل بين المنطقتين داخل نظرية الاستعمار الاستيطاني حاسمًا ولا مفرَّ منه، إلى درجة أنه لا يمنع من التحليل المُقارن فقط، بل يستلزم الإقصاء الكامل لأمريكة اللاتينية من التحليل، وبالمُقابل، فإنّ ما يمنحُ مفهوم استعمار السُلطة لكيخانو طابعه الكَوْنيَّ، هو نفسه ما يجعله مقتصرًا على أوروبة فحسب.

وعلى الرغم من الاختلافات التي تفصل المشروع النظري وحتى السياسي للاستعمار الاستيطاني عن مشروع استعمار السُلطة، فبوسعنا أن نجد بعض النقاط التي يشترك فيها المشروعان؛ إذ ينطوي استعمار السُلطة على عملية تاريخية ما زالت مستمرة حتى اليوم؛ حيث ما زال الاستعمار يُنظم علاقات القوة في المستعمرات السابقة وبين هذه المستعمرات والعواصم العالمية، وهُنا تكمن أهمية المفهوم، أي في كشف الاستمرارية التاريخية للمنطق الاستعماري في ترتيب القوة محليًا وعالميًا في هذا الزمن، وكما تُشير سبيد في مقالها المُعنون بـ«أنساق الاستعمار الاستيطاني في آبيا يالا» **"Structures of Settler Colonialism in Abya Yala"**، فإن كيخانو لا يرى أن حالة الاستعمار تنتهي بنيْل الاستقلال أو أنها من مخلّفات المؤسسة الاستعمارية فقط (**Speed 2017 :786**)، بل على العكس من ذلك، فإن القدرة الإرشادية لمفهوم استعمار السُلطة تكمن في كشفه وتعريته لحالة الاستعمار التي ما تزال تحدد القوة في الوقت الحاضر، ومؤخرًا، صقلت ريتا سيغاتو **Rita Segato** رؤية كيخانو من خلال الحديث عن القابلية للغزو **conquestability** لتُبيّن أن عملية الغزو لم تكتمل بعد في أمريكا اللاتينية[19] (**Segato 2016**).

ولوولف رأي مُماثل حين قال إن الاستعمار الاستيطاني ليس حدثًا، بل نظام (**Wolfe 1999**)، أي أنه ليس أمرًا وقع في الماضي ولم يعد له وجود، بل ما يزال ينظم علاقات القوة في كل مكان يحلُ به، وهذا يعني أن وولف وكيخانو يريان أنّ عملية الغزو ما تزال مستمرة، وبإمكاننا أن نخلص إلى أن وولف يُمارس الأساس المنطقي نفسه مع أمريكا اللاتينية، حتى وإن لم نستطع الجزم بهذا لعدم انتهاجه

[19] Rita L. Segato, "Patriarchy from Margin to Center: Discipline, Territoriality, and Cruelty in the Apocalyptic Phase of Capital," *The South Atlantic Quarterly* 115, no. 3, (2016): 615–24.
ريتا سيغاتو، الأبوية: من الهامش إلى المركز: الانضباط، الإقليمية، والوحشية في المرحلة الكارثية لرأس المال.

تحليلًا مُقارنًا، وكما ذكرنا سابقًا، فإن أمريكة اللاتينية تقع خارج حيثيات تحليله، أما بالنسبة لسبيد التي مارست تحليلًا مُقارنًا بين شمال أمريكة وجنوبها، فترى أنّ كيخانو نفسه ومنظري نقض الاستعمار الآخرين من أمريكة اللاتينية يعجزون عن رؤية استمرارية الاستعمار، وتضرب المثل بسيلفيا ريفيرا كوسيكانكي **Rivera Silvia Cusicanqui** التي ترى سبيد أنها تنظُر إلى الاستعمار الداخلي بوصفه من مخلّفات الماضي (**Speed2017:786**)، وحتى وإن لم تكن هُناك مساحة كافية هُنا للخوض في النصوص المُهمة لهؤلاء المنظرّين، فيلزم أن نؤكد أنّ مفهوم استعمار السُلطة عند كيخانو ينطوي بحسب تعريفه على استمرارية استعمارية تاريخية تشمل الحاضر، فهي عملية استعمارية نشطة ومتواصلة ومنظمة وليست حدثًا عابرًا وقع في زمن غابر ولم يبقَ منه إلّا أطلالاً.

وهُناك نقاط مُشتركة أخرى بين استعمار السُلطة والاستعمار الاستيطاني، فكلتا النظريتين تفْصِلان مضمونهما عن المفهوم التقليدي للاستعمار وإن بطريقة مُختلفة، فعند كيخانو، تختلف حالة الاستعمار [المشار إليها بمصطلح] **coloniality** عن الاستعمار[المشار إليه بمصطلح] **colonialism** لأن الاستعمار الأخير انتهي مع الاستقلال عن المملكة الإسبانية، أي مع انتهاء الحكم الإداري الخارجي والمباشر، أمّا [المصطلح الأول فيشير إلى] استعمار السُلطة، أو الأساس المنطقي للاستعمار الذي يُواصل مهمته في تنظيم العلاقات الاجتماعية حتى بعد نيْل الاستقلال، وعلى نحو مُماثل، يُفرّق كل من وولف وفيراسيني بين الاستعمار **colonialism** والاستعمار الاستيطاني، فبالنسبة لهم، يتطلب الاستعمار سيطرة أقلية خارجية على غالبية من السكان الأصليين، كما أن للعلاقة الرقمية أو النسبة الديموغرافية أهمية مُعتبرة في هذا التصور، وكما يُشير فيراسيني، فإن التفريق ليس قويًا، وقد يعني هذا أنّه في اللحظة التي يَصير فيها المستعمِرون أغلبية، فلن يعودوا مستعْمِرين أساسًا، وفي اللحظة التي يصير فيها السكان الأصليون أقلية، فلن يعودوا مستعمَرين، وقد يكون

هذا سخيفًا (Veracini 2010: 5)، ولذلك، يفرّق فيراسيني ووولف بين الاستعمار الاستيطاني والاستعمار بغرض الاستغلال، أي أنّ الاستعمار: هو ما يحدث خارج الاستعمار الاستيطاني، فالسيطرة الخارجية أو قوة المراكز الحضرية/المتروبولية المُفرطة هي ما تُميّز الاستعمار، أي الاستعمار الاستغلالي، في حين أنّ السيطرة الداخلية والمستقلة هي ما تميّز الاستعمار الاستيطاني، ولكن، في إشارة صائبة لسبيد، تقول: إنّ هذا التعريف يتجاهل التوترات الدائمة بين وكلاء الاستعمار **encomenderos**، والمملكة الإسبانية (**Speed: 2017**)، وكما هو معروف، فقد كان للوكلاء والغزاة مصالحهم الخاصة خارج المملكة منذ وقت مبكر، فقد شكلوا مشروعاتهم الخاصة في السيطرة، وهي مشروعات مستقلة عن أهداف المكلة الإسبانية، وسيحتفظ هذا الفصل بين الاستعمار الاستغلالي والاستيطاني ببعض المعنى، فقط، عندما يُتجاهل هذا التوتر القائم والمشاريع السياسية للمستعمرين الإسبان، وهو فصل ينتهي إلى حصر تعريف الاستعمار بما حصل في أمريكة اللاتينية، وحصر الاستعمار الاستيطاني بما حصل في أمريكة الشمالية.



٣. الدولة، العِرق وتمازج الأجناس:

تتسع الفجوات النظرية بصورة هائلة عندما نحلّل التصورات المُختلفة للدولة القومية وفكرة العِرق وتمازج الأجناس التي تعرضها كل نظرية، ففي تحليل كيخانو للدولة القومية نجد تركيزًا على العلاقات الاجتماعية لرأس المال، أي أنّ تنظيم العمالة أو أشكال استغلال العمالة المؤسَسة على فكرة العِرق هو ما سيحدد شكل الدولة القومية بعد نيْل الاستقلال، وليس هُناك شك في أنّ العمالة هي المقولة الرئيسة بالنسبة لكيخانو، ولا يدعو الأمر للاستغراب إذا ما علِمنا أنّ كيخانو ينتمي إلى الماركسية، لكنه يُضيف دور العِرْق في تقسيم العمالة، وهو الأمر الذي لا يُبعده عن الماركسية فقط، بل يقوده إلى خلاصات مُختلفة كل الاختلاف، ومن غير الملائم أنّ يكون سؤال احتلال الأرض غائبًا عند كيخانو[٢٠]، وهو السؤال الذي يحتل مكانة مهمة للغاية

[٢٠] يتبع كيخانو آثار الماركسي البيروفي كارلوس مارياتيغي Jose Carlos Mariategui (**1971**) ولكن بطريقة عكسية. بالنسبة لمارياتيغي فإن "**مشكلة الهندي**"؛ كانت نظام ملكية الأرض في بيرو، وعلاقات العمالة الخاصة بالهنديين التي تعتمد على الاستعباد الذي استمر حتى بعد نيل الاستقلال. كان على بيرو أن تُنهي الإقطاعية وتعيد الملكية الجماعاتية للشعوب الأصلية من أجل أن تصبح دولة قومية شرعية. وقد كان الحل في الاقتصاد. بالنسبة لكيخانو، كانت المشكلة؛ هي تورط الدولة القومية الحديثة في المُجتمع الاستعماري. إن استمرارية استعمار السُلطة على أساس فكرة العِرق والمركزية الأوروبية على المستوى المجتمعي؛ هي التي شكلت الدولة القومية الحديثة الناشئة وحددت استمرار علاقات العمالة بالاعتماد على استعباد السكان الأصليين والمنحدرة أصولهم من العبيد الأفارقة. وما دام استعمار السُلطة المبني على العِرق مستمرًا، فإنّ الشعوب الأصلية؛ لا تملك أي مكانة داخل الدولة القومية والديموقراطية الليبيرالية. من هذا الجانب، لن يساهم أي تجديد زراعي في حل "**مُشكلة الهندي**" بنجاعة ما دام يُنظَرُ للسكان الأصليين باعتبارهم عرقًا دونيًا، وشعوبًا بلا حقوق. لذلك، فالحل سياسي أكثر، أو أنه مسألة تقسيم القوى.

See Mariátegui, José Carlos, Marjory Urquide, Jorge, Basadre, Seven Interpretive Essays on Peruvian Reality (Austin: University of Texas, 1971); Anibal Quijano, "'El Movimiento Indígena' y las Cuestiones Pendientes en América Latina" in Cuestiones y horizontes: de la dependencia histórico-estructural a la colonialidad/ descolonialidad del poder (Buenos Aires: CLACSO, 2014).

بالنسبة لمنظرّي الاستعمار الاستيطاني، فالإقليم المُحتل الذي يُنظم رأس المال عِرقيًا باعتباره علاقة اجتماعية، والدولة القومية التي تَنتجُ عنه يَقعان خارج اهتمامات كيخانو، ولذا فإن شانون سبيد محِقة بهذا الخصوص حين قالت: إن الاحتلال الإقليمي أمر واقع لا مفر منه بالنسبة لمنظري نقض الاستعمار، إذ يبدو أنّ تحليل نقض الاستعمار يرى أنّه لا يمكن إغفال أو إلغاء جزئية احتلال الأرض **(Speed 2017: 786)**، وهكذا، يُفضّل كيخانو سؤال العمالة على حساب سؤال احتلال الأرض، وكأنه يتبع الأسس المنطقية للاستعمار الاستيطاني الخاص باستعمار أمريكة اللاتينية.

ومن المُمكن ألا يشعر أحفاد المستعمِرين الإسبان، أو من تمتزج أصولهم مثل كيخانو (**أو مثلي**) بأنهم مُغتصبي أرض في الوقت الحاضر، فهل يسعنا أن نعتبر احتلال أراضي السكان الأصليين في دول أمريكة اللاتينية القومية أمرًا واقعًا لا رجعة منه؟ وأنّ حضورنا «**الشرعي المُستحق**» على هذه الأراضي المُحتلة لا نزاع فيه؟ أهي المُعضلة القديمة لمن تمتزج أصولهم ولا يملكون أي موقع **سوسيولوجي/اجتماعي**، أو أيّة جماعة أصلية يتكئون عليها، ويرون أنفسهم بوصفهم الورثة الشرعيين للأراضي المُحتلة؟ أعتقد أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة مهمة جدًا لمشروعاتنا في **نقض الاستعمار/الديكولونيالية**.

أمّا بخصوص الدولة، فيرى كيخانو أنّ الوجود الكبير أو القليل لعمالة السكان الأصليين ومن ينحدرون من أصول إفريقية والشعوب الأوروبية البيضاء هو ما يُحدّد تماسك الدولة واستقرارها وجودتها الديموقراطية، وهذا يعني أنّ الدولة مُعرّفة ديموغرافيًا؛ فكلّما ازداد عدد المأجورين البِيض من السكان الأحرار، أصبحت سيادة الدولة وحقوق مواطنيها أكثر قوة، وكلّما ازداد عدد السكان الأصليين والعبيد السود، قلّت درجة السيادة التي يُمكن أن تصل إليها الدولة، كما تقِل الحقوق التي قد يطمح المواطنون للحُصُول عليها، وبينما تُقلّص التركيبة العِرقية في أمريكة اللاتينية من

شكل الدولة والمُواطنة، فإن وجود غالبية بيضاء في كل من الولايات المتحدة وكندا يَسمحُ بتأسيس دولة في غاية القوة والاستقلال وتأسيس مجتمع ديموقراطي، ومع ذلك، فيجب ألا ننسى أنّ الأُسس التي تقوم عليها الدولة في كل من الولايات المتحدة وكندا لم تكن يومًا ديموقراطية؛ إذ لم يُشكل النساء ولا السكان الأصليون ولا السود في البداية جزءًا من المُجتمع السياسي، ومن اللافت أنّ هذه التركيبة الديموغرافية انعكست في الولايات المتحدة بسبب الهجرة الجماعية لسُكان أمريكة اللاتينية، ثم انتهت هذه «**التجربة الأمريكية**» في عهد ترامب.

وبالمُقابل، يرى مُنظِرُو الاستعمار الاستيطاني: أنّ الدولة القومية دولة غير شرعية ترتكز على الاحتلال المُتواصل والعنيف لأراضي السُكان الأصليين، أي أنّنا نَتعامَلُ مع دولة استعمار استيطاني تعتمد على إبادة الشُعوب الأصلية لتسمح للغاصبين أو الغالبية البيضاء لا أن يكونوا المالكين الشرعيين للأراضي المُصادرة فحسب، بل أن يكونوا الجماعة الوحيدة التي تتمتعُ بالحُقوق السياسية، ومن هذه الزاوية النظرية، فإنّ كل من يُطالب بحقوق هذه الدولة الغاصِبة يُصبح غاصبًا لحقوق السكان الأصليين بمن فيهم المُهاجرون الذي جاؤوا من أماكن أُخرى (**Tuck and Yang 2013**)[٢١].

ومن زاوية أُخرى، تعترفُ نظرية الاستعمار الاستيطاني بالرأسمالية بوصفها نظامًا سائدًا (**حتى وإن كان خوض النظرية في هذا الموضوع شحيح**)، ولكون عمالة السُكان الأصليين غير مُرتبطة بإعادة إنتاجها بوصفها نظامًا، فإن المشروع السياسي الخاص بالسُكان الأصليين يتطلب استرداد الأراضي والسيادة قبل كل شيء، أمّا

[21] Eve Tuck and Wayne K. Yang, “Decolonization is Not a Metaphor,” Decolonization, Indigeneity, Education and Society 1, no. 1 (2012): 1–40.

إيف توك وواين يانغ، نقض الاستعمار ليست استعارة.

إصلاح الدولة أو إشراك المُواطنين في الدولة القومية فليس بالأمر المُهم، ومن هذه الناحية، يُصبح الكفاح ضد الرأسمالية وحده غير كاف لأنه يُبقي على ملكية السكان غير الأصليين للأرض.

وكما نرى، فإنّ تحليل رأس المال والعمل ليس بالأهمية التي نجدها عند كيخانو؛ إذ يظهر فقط في تحليل الاستعمار الاستيطاني للتفريق بين شكل الإخضاع المُمارَس على العبيد الأفارقة في دولة الاستعمار الاستيطاني، وذاك المُمارس على السُكان الأصليين، ووفقًا لهذا التحليل، لا يُطبِّق المستوطنون الغاصبون منطق الإبادة على العبيد الأفارقة، وعلى العكس من هذا، كان العبيد مطلوبون بكثرة للعمل في مزارع الأراضي المُحتلة خلال فترة العُبودية، كما كان دَورُ النساء المستعبَدات السوداوات أساسيًا أيضًا، لأنهن كن المسؤولات عن توفير الطعام للعبيد، وكان أطفالهن يولدون عبيدًا (**حتى وإن كان الأبُ أبيضًا، أو إن كان الأطفال نتيجة لحالة اغتصاب**)، وكان الأمر مُختلفا بالنسبة للنساء اللائي ينتمين إلى السكان الأصليين؛ فقد كان المُستوطن الغاصب يغتصبهن، أو يخطف أطفالهن؛ بُغية خلقِ نسبٍ أبيض [22] **(Nahwilet Meissner and Whyte 2017 :157).**

وفي أمريكة، أَنتجت هذه العقليات المُختلفة في التعامل مع السُكان الأصليين، والعبيد الأفارقة سياسات عِرقية مُختلفة لكل مجموعة، فقد كانت قاعدة «القطرة الواحدة» **rule of one drop** تُطبَق، وكما يُخبرنا وولف في أحد أعماله الأخيرة، كانت هذه القاعدة تسمحُ بإدماج السكان الأصليين، لأنّ امتزاجهم مع البِيض كفيل باختفائهم،

[22] Shelbi M. Nahwilet, and Kyle White, “Theorizing Indigeneity, Gender, and Settler Colonialism,” in *Routledge Companion to the Philosophy of Race*, ed. Paul C. Taylor, Linda Martin Alcoff, and Luvell Anderson (New York and London: Routledge, 2017), 152–67.
شيلبي ناهويليت وكايلي وايت، التنظير للأهلية، الجندر والاستعمار الاستيطاني.

وبالمُقابل، فقطرة واحدة من الدم الإفريقي كفيلة بجعل الشخص يفقد مكانته باعتباره أبيضًا، أو من السكان الأصليين (**Wolfe 2001: 866**)، ووفقًا لهذه السياسة العِرقية، يبدو دم الساكن الأصلي سهل التمييع، على عكس الدم الإفريقي الذي يُعرَف بقِواه التلويثية العظيمة، ولم تسمح هذه السِياسة العِرقية بتطوير طبقة ترتكز على تمازج الأجناس، أو الاختلاط العِرقي، ومن وجهة نظر السكان الأصليين، كان الاختلاط العِرقي يعني انقراضهم، على عكس الأفارقة الذين كان يعني لهم التمييز ضدهم وعزلهم، أمّا البيض فقد كانوا ينظرون إليه بوصفه اختلاطًا.

ومن المُفترض أنّ أمريكة اللاتينية كانت على النقيض من ذلك؛ إذ كان يُفترَضُ أنّ قطرة من الدم الأبيض ستجعلُ كُلّا من الساكن الأصلي والإفريقي أكثر بياضًا، وتخلُق بالتالي عِرقًا أو جنسًا مُختلطًا **mulataje**، ولا تسعُنا المساحة هُنا للخوض بعُمق في هذه الفئات ولا سياسة النظام الطبقي التي تضبط بعناية الترتيب الاجتماعي للناس خلال فترة الاستعمار وِفقًا لمفاهيم مثل «نقاوة الدم» والخلطات المُحتملة المُختلفة للعِرق، فقد كان مفهوم «نقاوة الدم» يُستعمَلُ أساسًا للتفريق بين المسيحيين القدماء، والجدد، أو المُعتنقين اليهود، وكان هذا المفهوم يُمارسُ في المُستعمرات باعتباره مبدأً ناظمًا لإشراك أو إقصاء المجموعات العِرقية المُختلفة، ومن المؤكد أنّ النظام الطبقي يكشِفُ عن الالتباس والخُبث الذي يُحيط التصنيفات الطبقية في أمريكة اللاتينية، كما يُمكنُنا أن نرى كيف أنّ اختلاق العِرق المُختلط أو الديموقراطية العِرقية التي تتحدث عنها البرازيل كانت بمثابة العباءة، ليس للتمييز العِرقي المتجذر ضد السكان الأصليين والسود فحسب، -والذي نجده في مجتمعات أمريكة اللاتينية-؛ بل لمنطق التصفية الذي يُميّزنا، ذلك أنّ اختلاط العِرق يعني فناء السكان الأصليين واستبدالهم بأصحاب الأعراق المُختلطة، ومن هذا المُنطلق، فإنّ أيديولوجيا العِرق المختلط بوصفها أساسًا للدولة القومية في أمريكة اللاتينية كُشِفت

بوصفها حيلةً للإبادة التي تسعى للتخلص من العناصر غير المرغوب فيها من السكان الأصليين والسود[23] (**Siverblatt 2012**).

ولهذه التصورات المُختلفة عن الدولة والعِرق والجِنس المُختلَط تبَعات سياسية؛ ففي أمريكة اللاتينية تربط حركات السُكان الأصليين المُطالبة بالأرض بالمُكافحة ضد التجريد الدائم من ملكيتها في نفس الوقت الذي تعتمد فيه هذه الحركات على الدولة لحماية حقوقها، وعليه فإن إعادة تأسيس الدولة إلى دول متعددة القوميات، وإدماج مبادئ السكان الأصليين، مثل مبدأ «الحياة الطيبة» أو **Buen Vivir** وحقوق الطبيعة في نصوص الدساتير، ما هي إلّا إصلاحات لدولة **الميستيزو-كريولو** **mestizo-criollo** وليست انقلابًا عليها، كما أنّ قبول هذه المبادئ من طرف **الميستيزو-كريولو** وحتى من طرف السياسيين من السكان الأصليين مثل إيفو موراليس **Evo Morales** في الدساتير، يمثل إصلاحات شكلية تُضفي الشرعية على هذه الدولة بدلًا من أن تقوم بتحويلها، أي أنها ليست تدخلات تسعى لتغيير الطابع الاستعماري للدولة.

وفي المُقابل، فإن السياسة التي ينتهجها الاستعمار الاستيطاني في حق السكان الأصليين تنطوي على الرفض المطلق للدولة الاستعمارية الغاصبة، ففي شمال أمريكة، حُشرت الشعوب الأصلية في المحميات، أو شُتتت في مراكز حضرية مُختلفة من خلال الترحيل القسري عقِبَ المُصادرة الجماعية لأراضيهم، وهكذا، باتت علاقتهم مع الدولة علاقة خارجية، وقد كان الاعتراف بهم بوصفهم أُممًا داخل دولة الاحتلال الاستيطاني عاملًا رئيسًا في تحديد هذه العلاقة الخارجية مع الدولة،

[23] Irene Silverblatt, “Heresies and Colonial Geopolitics,” *Romanic Review* 103, nos. 1-2, (2012): 65–80.

كما أنّ هذه النظرة الخارجية لم تسمح للدول الغاصبة في الولايات المتحدة وكندا ببناء شبكة معقدة وفاسدة من سلطات السكان الأصليين في المحميات التي لا تتمتع بالسيادة والاستقلالية الحقيقية فحسب، بل حافظت أيضًا على حق الإفلات من العقاب عند أي انتهاك يقع لحقوق السكان الأصليين، فلوقتٍ طويل، مثلاً، لم يكن الرجل الأبيض الذي يغتصب امرأة من السكان الأصليين يُحاكَم من طرف سلطات السكان الأصليين في محمياتهم[٢٤]، وكانت النساء من السكان الأصليين هي أكثر فئة تُعاني من عنف الرجل في الولايات المتحدة الأمريكية وأغلب هؤلاء من الرجال البيض[٢٥]، وهُنا نستطيع أن نفهم كون هذا الأمر أحد أسباب إصرار السكان الأصليين في أمريكة الشمالية على رفض الاعتراف بالدولة القومية بوصفها سُلطة شرعية؛ فسياستهم في رفض الدولة غير قابلة للنقاش، إلّا أنّ هذا الموقف يضعهم في حالة شبه مستحيلة، لأنّ إسقاط الدولة القومية التابعة لأعظم قوة في العالم هو وحده الكفيل بضمان استرجاع أراضيهم واسترداد سيادتهم.

وقد واجه السُكان الأصليون -**في كلّ من الشمال والجنوب**- مُعضِلة تقاسم الأرض والسيادة والسُلطة مع غُزاتهم، إذ جاء المستوطنون ليستقروا، سواء أولئك الذين أتوا من بريطانيا، أو من أنحاء أوروبا الأخرى، وحتى الإيبيريون من الجنوب، أمّا أولئك

[٢٤] العُنف ضد Women Reauthorization Act أعاد السلطة الإجرامية القبلية ضد غير الهنود. ومع ذلك، فإن هذه السُلطة؛ محصورة فقط في الأزواج، الأزواج السابقين، أو الشركاء الغراميين، في حين أن بقية المجرمين يبقون طلقاء.

[٢٥] في كتابها بداية ونهاية الاغتصاب *The Beginning and End of Rape (2015)*، تبينُ سارة دير؛ مركزية واستمرارية اغتصاب النساء الهنود من طرف الرجال غير الهنود؛ بالنسبة للاستعمار الاستيطاني عبر التاريخ. إذ تُحاجج ضد فكرة التفكير في النسب المرتفعة لاغتصاب النساء الهنود اليوم؛ بوصفها جائحة. بل يجب أن نراها بوصفها ضرورة تاريخية للقضاء على الهنود، ولتحطيم معنوياتهم.

Sarah Deer, *The Beginning and End of Rape. Confronting Sexual Violence in Native America* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2015).

الذين تختلط أصولهم، والذين هُم نتاج الواقع الاستعماري، فقد حاولوا تحويل هذه العلاقات الاستعمارية إلى صالحهم، عن طريق جعل عِرقهم هو الأساس، أو البنية التحتية للدولة القومية[٢٦] (Mendoza 2001)، وبهذا، يزعُمون ملكِيَتهم لتراث الأب الغازي والوكيل، وفي الشمال، أصبح تمازج الأجناس وسيلة لجعل السكان الأصليين أكثر بياضًا، وجعل مُهمة تمييزهم عن البيض أكثر صعوبة، كما قاد إلى إعلان البِيض بوصفهم الورَثة الشرعيين للأراضي المُحتلة، ولم تلائم كل هذه الحالات السكان الأصليين، فما الحل إذن؟ وما الذي يقتضيه نقض الاستعمار؟ سنعود إلى هذا الموضوع في آخر المقالة.

وقبل أن نُغلق هذا الباب، ودون أن نتمكن في الخوض في تفاصيل أكثر، أوّد أن أذكّر بنقطة أخرى يختلف فيها مفهوم وولف عن الاستعمار الاستيطاني، عن مفهوم كيخانو عن استعمار السُلطة، وأُشير هنا إلى التأريخ المُختلف الذي يستعمِلانه لفهم أصول مفهوم العِرق والعِرقية، ففي كتابه الأخير «آثار التاريخ» "Traces of History"، يتتبع وولف تاريخ العِرق والعِرقية ليتمكن من مُقارنة أنظمة العِرق المُختلفة التي تأسست في كل من أستراليا والولايات المتحدة والبرازيل وإسرائيل (Wolfe 2016)، وكما هُو معروف في المجال الأنجلوفوني، فإنّ وولف يتجاهل تاريخ العِرق والعِرقية الخاص بالاستعمار الإيبيري؛ كي ينسب أصل تصورهما إلى أواخر القرن الثامن عشر في أوروبا الشمالية عند انتقالها من المركانتالية* إلى

---

[26] Breny Mendoza, "De-Mythologizing Mestizaje in Honduras: Evaluating New Contributions," Mesoamerica 22, no. 42, (2001): 256–78.

بريني ميندوزا، نزع الميثولوجيا عن الجنس المُختلط في هوندوراس: تقييم المساهمات الجديدة.

*قلت: المركنتالية (Mercantilism) مذهب اقتصادي تبلور في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي نتيجة اكتشاف مناجم الذهب والفضة في أمريكة، ويقوم هذا المذهب على الفكرة القائلة إن غنى الدولة يعتمد على امتلاك المعادن الثمينة، ويرسم هذا المذهب ويحدد الوسائل التي يتحقق بواسطتها هذا التصور، وقد تباينت =

الرأسمالية الصناعية، وكان هذا الانتقال مدعومًا بالشروط الاقتصادية التي عمّت المستعمرات الاستيطانية، وهنا يذكر وولف **البرازيل** باعتبارها نقيضًا لهذه المستعمرات (Wolfe 2016 :8)، ومن المعلوم أيضًا، أن المستعمرين الإيبيريين لم يستعملوا مصطلحات مثل «العرق» و «العِرقية»؛ في أنظمة التصنيف الاجتماعية، كما لم يستعملوا كذلك مصطلح «المُستعمرات» للإشارة إلى أراضيهم في الخارج، ولا يعني هذا طبعًا أنّ العِرقية والاستعمار لم يكونا موجودَيْن؛ لكن العديد من المؤلفين لا يعترفون بنسب فكرة العِرق والعِرقية إلى المستعمرات الإيبيرية لأنّ التصنيفات الاجتماعية كانت تعتمد على معايير دينية في بيئة اقتصادية **قبل-رأسمالية**، وبالنسبة إلى وولف، وإلى العديد من المؤلفين التي كانت مركزيتهم أنجلوفونية، فقد تشكل مفهوم العِرق منذ فجر عصر التنوير وحلول العِلم باعتباره النواة الرئيسة للمجتمع الحديث، إذ إن العِرق والتمييز العِرقي لا يكونان إلا حينما يكون العِلم؛ ذلك أنه يبرر ويؤصِّل ويُطبع فكرة لون البشرة بوصفها دليلًا على الدونية البيولوجية، وعلى الرغم من ذلك، فإن ربط تشكل مفهوم العِرق والعِرقية بالعلم والرأسمالية الصناعية لا يبدو صائبًا تمامًا.

إنّ العِرقية العِلمية ليست إلّا تتويجًا لتاريخ طويل من التمييز العِرقي **racialization** الذي بدأ في القرن الثامن مع استعباد المسلمين للأفارقة، وإذا استعنَّا بالذاكرة التاريخية الطويلة فيُمكنُنا القول إنّ العِرقية تسبق التوسع الاستعماري الأوروبي نوعًا ما، وأنّ جذورها تقعُ خارج أوروبا أساسًا، وفي مقاله «الجذور الإيبيرية للفكر الأمريكي العُنصري» **"The Iberian Roots of American Racist Thought"**،

تطبيقات الدول لهذا المذهب، ولذا فهو لا يمثل نظامًا اقتصاديًا بالمعنى الدقيق، وقد وصف بأنه مذهب ينمو بقوة لحماية اقتصاد البلاد، ويمارس التجارة بعقلية ضيقة، ورغبة جامحة في الربح.

يتعقب جايمس سويت **James H. Sweet** تاريخ العِرقية على نحو مُقنِع (**Sweet**[٢٧] **1997**)، فقبل ظهور الإيبيريين بثمانمائة سنة، كان المسلمون قد بدأوا أساسًا باحتجاز الأفارقة باعتبارهم عبيدًا، وكان هذا بحُجة الدونية الثقافية والبيولوجية المستندة إلى لون بشرتهم وأنماطهم الظاهرية؛ إذ كان المُسلمون العرب يَرون في أنماط عيش الأفارقة مظاهر دونية ثقافية كانت مُرتبطة بلا مُنازع بالدونية البيولوجية التي جعلتهم أقرب إلى المملكة الحيوانية، ولذا، فقد كان المسلمون الذين كان لهم عبيد من البيض أيضًا، يدِّخرون أشدّ الأعمال للسود، وبعد فترة وجيزة، أصبحت البشرة السوداء تعني الدونية، حتى وإن لم يكن الشخص الأسود عبدًا، وشيئًا فشيئًا أصبح السواد يُعادلُ العُبودية في كل أنحاء العالم الإسلامي*، وشمل

[27] James H. Sweet, "The Iberian Roots of American Racist Thought," The William and Mary Quarterly 54, no. 1, (1997): 143–66.

جايمس سويت، الجذور الإيبيرية للفكر الأمريكي العُنصري.

*قلت: يفتقر كلام الكاتب هنا إلى الدقة وهو أقرب إلى الادعاء منه إلى الحقيقة العلمية، فنسبة القول بالدونية البيولوجية للسود إلى المسلمين غير دقيق تاريخيًا، بل هو إرث يعود للرومان ونظرتهم إلى العبد، فلا يجادل أحد في أن العبودية شاعت عندهم، وقد ورد في تصنيف العبيد عند الرومان ما يجعلهم أقرب إلى الأشياء، ففي النظرية الرومانية - كما ذكرت منظرة ما بعد الاستعمار غاياتري سبيفاك- صُنِّف العبد الزراعي بوصفه أداة صوتية، أي أداة تتحدث، فهو أعلى بدرجة واحدة من الماشية التي تشكل أداة شبه صوتية، وأعلى بدرجتين من الأداة الجامدة التي هي أداة خرساء.

ويؤكد هذا أن العبودية سابقة على الإسلام، ولم يأت بها الإسلام أو يبتكرها، بل كانت شائعة في العصور السابقة عند العرب وغيرهم من الأمم، وقد عرف العرب الأحباش الأفارقة قبل الإسلام.

ثم إن الجانب المعياري في الإسلام واضح فيما يتعلق بعدم التفرقة العرقية والمفاضلة على أساس لون البشرة، والنصوص الشرعية في هذا الموضوع متوافرة، ويضاف لها من الشواهد التاريخية ما يدحض هذه الفكرة، فللرقيق أو العبيد سودا كانوا أم بيضًا حقوق في الشريعة، وارتقاء الرقيق والسود إلى مناصب عليا في الدولة الإسلامية، وفي العلم والفتيا الشرعية مدون ومشهود، ولا ينفي هذا وجود مخالفات تتصل بجذور عصبية في الثقافة العربية سابقة على الإسلام، والنقولات عن تمسك بعض العرب بشيء من بقاياها بعد الإسلام محفوظ أيضا، لكن هذا لا يعني شيوع هذه النظرة الدونية وغلبتها على المجتمعات الإسلامية للتأثيرات الدينية المشار إليها، ومقاومة مثل هذه التصورات ظهرت في صور عديدة منها: التأليف، فقد ألف بعض علماء المسلمين وأدبائهم في فضل السود ومزاياهم

هذا لوقت طويل شبه الجزيرة الإيبيرية، كما أنّ الأعراف اليهودية المسيحية بدأت بإضافة ذرائع جديدة لانحلال الأفارقة، وذلك بربط عُبودية السود مع لعنة حام ابن نوح الذي حُكم عليه بأن يكون أسودًا وعبدًا للأبد، عقوبةً له على اعتدائه على أبيه جنسيًا، بحسب كتاب العهد القديم، وقد أوجدت هذه الإشارات من الكتاب المُقدس خطابًا دينيًا للعِرقية وعبودية السُود، وبدأ العرب بربط ما يُسمى بالدونية الإفريقية بحالة الأفارقة بوصفهم كفارًا، وهكذا، أخذ الإيبيريون العديد من أساطير العرب واليهود ورموزهم، وأضافوا إليها حُججًا جديدة (**Sweet 1997:8**)، فعِند سُقوط الأندلس (**حروب الاسترداد** **Reconquista**، أو الحِقبة التاريخية التي «استرد» فيها المسيحيون الإيبيريون الأراضي التي احتلتها «الممالك» الإسلامية، لم يكُن السود غير مسيحيين فقط، بل كانوا أيضًا مُجبرَين على أن يكونوا خدمًا للعرب غير المؤمنين، أي كان محكومًا عليهم بالعُبودية مرتين، ولم يخلّصهم اعتناق الدين الإسلامي أو المسيحي من قدَرهم بوصفهم عبيدًا.

وفيما بعد، أصبح الإيبيريون يطبقون نفس المبادئ العُنصرية التي مارسوها على الأفارقة ضد المُسلمين واليهود، باتهامهم بكونهم كُفارًا، ثم استعمالهم باعتبارهم عبيدًا، وفي سنة ١٤٤١ بارك الفاتيكان عُبودية السود عن طريق توسيع نطاق السُلطة لتشمل كل الممالك التي تُفرض فيها المسيحية، كما أنّ نقاء الدم لم يعتمد حصرًا على الانتماء المسيحي، فقد كان يعتمد بشكل مماثل على لون البشرة، ونتيجة لذلك، انكب كلٌّ من البرتغاليين والإسبان على تجارة العبيد، وكلّما ارتفع الطلب على العبيد، أصبحت الأيديولوجيا العُنصرية أكثر تماسكًا في العالم الإيبيري، حتى أنّ البرُتغال اعتمدت على تجارة العبيد بشكل كامل في اقتصادها، وكان هذا هو الحال قبل

كتبًا ورسائل، منها: (فخر السودان على البيضان) للجاحظ، و(تنوير الغبش في فضل السود والحبش) لابن الجوزي، و(رفع شأن الحبشان) للسيوطي.

غزوها لما يُعرف اليوم بالبرازيل وبعده، ومع حُلول سنة ١٤٨٠ كان هُناك تدفقٌ مهم للعبيد في إسبانية والبرتغال.

ومع غزو أمريكة، كان الإيبيريون مُحمّلون بأيديولوجيا عُنصرية يبررون بها تجارة العبيد واسعة النِطاق، والمجازر التي يرتكبونها في أمريكة، وهذه التوطئة الإسلامية والإيبيرية هي نفسها فكرة العِرق التي يُشير إليها كيخانو ومنظرو نقض الاستعمار الآخرون، ولهذا تحدث كيخانو عن فكرة العِرق ليُشير إلى أسبقيتها واختلافها عن العِرق بوصفه مقولة عِلْمية، وهي المقولة التي سيُطورها البريطانيون في القرن الثامن عشر.

وختامًا، فإن العِرقية تسبق الرأسمالية، ولا تخص الفضاء البريطاني فحسب، بل إنّ لها جذورًا عميقة في كل من العالم الإسلامي والإيبيري، وعلى الرغم من هذا، ستُصبح العِرقية فيما بعد، القوة الدافعة للرأسمالية عندما تُمسي الأراضي المُصادَرة الشاسعة في أمريكة أحد أهم مواردها، وكما سبق القول مرات عديدة، إنّ العِرقية العِلْمية ليست إلّا علْمَنة لعملية استمرت في التكوّن قرونًا عديدة، وما حدث هو أن تاريخ العِرق والعِرقية مُحِي بالكامل من تاريخ الاستعمار الاستيطاني.



٤. مُعالجة النوع الاجتماعي/الجندر:

ليس هُناك حاجة تقريبًا للقول بأنّ النوع الاجتماعي/الجندر يلقى مُعالجة ثانوية في كلّ من نظرية الاستعمار الاستيطاني واستعمار السُلطة عند كيخانو؛ فهُناك صمت مُطبق حول الموضوع، ورغم أنّ كيخانو ينظر إلى التحكّم في المرأة باعتباره مجالًا رئيسًا في مفهومه لاستعمار السُلطة، فإنه لا يُفصّل فيه في كتاباته، ويُحاول منظرو نقض الاستعمار الشباب تصويب هذا التجاهُل حول النوع الاجتماعي/الجندر، غير أنّ مكانة النوع الاجتماعي/الجندر تبقى مُختلفة كل الاختلاف عن مكانة العِرق، إذ يحتل سؤال العِرق مكانة الصدارة عند كل من منظري الاستعمار الاستيطاني **ونقض الاستعمار/الديكولونيالية**، وحتى نتمكن من تحليل مُعالجة النوع الاجتماعي/الجندر داخل نظرية نقض الاستعمار والاستعمار الاستيطاني، ينبغي أن نلجأ إلى أعمال النسويات من السكان الأصليين، ونسويات نقض الاستعمار اللاتي تأثرن بهذين التيارين النظريين، والكتابات في هذا المجال واسعة جدًا ولن أوفيها حقها، ورغم ذلك، فأوّد أن أُقارن بإيجاز بين النصوص التي كتبتها الكاتبة الأرجنتينية التي يُمكن اعتبارها كويخانية، ريتا سيغاتو **Rita Segato** عن العُنف ضد المرأة، وماريا لوغونيس **Maria Lugones** الأرجنتينية أيضًا، والتي صاغت مصطلح استعمار النوع الاجتماعي/الجندر الذي استلهمته من كيخانو **(2007, 2020)**[٢٨]، وبالمقابل، سأعتمد على نصوص منظرات نسويات من السكان

[28] See Maria Lugones, “Heterosexualism and the Colonial/Modern Gender System,” Hypatia 22, (2007): 186–209,ماريا لوغونيس، الغيرية الجنسية والنظام الجندري الاستعماري الحديث and “Revisiting Gender: A Decolonial Approach,”إعادة النظر في الجندر، منهج نقض استعماري in Theories of the Flesh, ed. Andrea J. Pitts, Mariana Ortega, and José Medina (New York: Oxford University Press, 2019), 29–37.

الأصليين لأمريكة الشمالية، مثل: إيف توك **Eve Tuck** وكاي واين يانغ **K. Wayne Yang** التي كتبت «نقض الاستعمار ليس استعارة»، **"Decolonization is not a Metaphor" (2012)** وأندريا سميث **Andrea Smith (2005)**[29]، واللائي يُعتَبَرن جميعًا؛ منظرات نسويات للاستعمار الاستيطاني، وسأقدم هُنا عرضًا موجَزًا لنقاط الالتقاء والاختلاف الموجودة بين هؤلاء المؤلفات.

تعودُ سيغاتو إلى لحظة التصدع في علاقات النوع الاجتماعي/الجندر التي وُجِدت قبل الغزو، وإلى تشكيل المجال العام، ومن ثمَّ إلى تشكيل دولة **الميستيزو-كريولو**، من أجل فهم العُنف الشديد ضد المرأة ومستويات الوحشية التي وصلت إليها مجتمعات أمريكة اللاتينية؛ فتربط سيغاتو بين العُنف الاستعماري الأصلي، وعُنف ما تُسميه بالمرحلة الكارثية لرأس المال، وبالنسبة لها، يؤدي تشكيل المجال العام والدولة باعتبارهما فضاءات ذكورية بشكل صارم إلى انهيار النظام الأبوي الذي كان موجودًا قبل التدخل الاستعماري، فقد كان ذلك النظام الأبوي أكثر إحسانًا [إلى المرأة] من النظام الذي جلبَهُ المُستعمِرون، إذ اعترف النظام الأبوي السابق للاستعمار بالاختلاف الأُنثوي، ومنح النِساء مكانة **وجودية/أُنطولوجية**، ورغم هذا، ترى سيغاتو أنّ السكان الأصليين الرجال يتمتعون بامتيازات لا تتمتع بها النساء، ومع ذلك فلم يكن [نظام السكان الأصليين] نظامًا هرميًا بالغ السوء، حيث لم يكن هُناك مُقابلة ثنائية، ولم تُصبح الذكورة مرجعًا عالميًا، كما تُخبرنا سيغاتو أنه كان نظامًا «**عابرًا**» إذ كان كل من الذكورة والأنوثة متاحين للرجال والنساء على حدٍّ سواء.

[29] Andrea Smith, Conquest: *Sexual Violence and American Indian Genocide* (Cambridge, MA: South End Press, 2005).

أندريا سميث، العُنف الجنسي، والمجزرة الأمريكية الهندية.

وتحذرنا سيغاتو من أنّ هذا الحدث التاريخي، ليس حدثًا يُمكن أن نُقصيه إلى مستوى ثانوي في التفكير المتصل بنقض الاستعمار، فبالنسبة لها، يشكل كل من انهيار عالم القرية تحت النظام الاستعماري، وإعادة هيكلة الأبوية والنوع الاجتماعي/الجندر مفتاحًا لفهم تاريخ العالم المُعاصِر، أو فهم استعمار السُلطة، ولا تُعتَبَر مُعالجة مسألة المرأة بوصفها مُشكلة منعزلة عن الأحداث الفارقة في التاريخ مجرد خطأ، إذ إن التقليل منها وجعلها تابعة لمشكلات مركزية أُخرى يؤدي بنا إلى عدم فهم المركزية التي تملكها الأبوية في تشكيل كل مجتمع. وبهذه الطريقة، تكشف سيغاتو عن نفسها بوصفها سليلة النسوية الراديكالية -**بالمعنى الكلاسيكي**- إذ تقدم الأبوية باعتبارها مخططًا لكل علاقات القوى التي ظهرت لاحقًا[٣٠]، ونخلُص من هذا إلى أنّ العِرق بالنسبة لسيغاتو فرعٌ من علاقات النوع الاجتماعي/الجندر، وليس العكس كما يفترض كيخانو.

ونستطيع أن نشرح الوحشية الشديدة للقتل الجماعي للنساء في أمريكة اللاتينية، والتمركز الكبير للثروة العالمية التي نشهدها اليوم من خلال تتبع الأسباب المَرضية للاستعمار والرأسمالية بالاعتماد على دعامتهما الأبوية[٣١]، فإنّ تمركز الثروة الذي نُلاحظه في كل مكان من التشيلي إلى قطر؛ ليس إلّا تجسيدًا للمشروع **الاستعماري/الحديث** الذي هو الآن في مرحلته الأخيرة، إذ لم تعد الدولة عامة بل صارت خاصة، كما صارت أراضيها القومية ملكية حقيقية تتحكم فيها قيادات شخصية تكرر إنجازات المُحتل بالاعتماد على «**النهب والتشريد والاقتلاع والاستعباد والعمالة الاستغلالية إلى أقصى الحدود**» **Segato**. (2016: 621)

[٣٠] أدين بهذه المُلاحظة لساندرا هاردين Sandra Harding.

[٣١] تجعلنا سارة دير أكثر وعيًا بالنظائر الموجودة بين قتل النساء في أمريكة اللاتينية، والنسب المرتفعة جدًا للاغتصاب وقتل النساء أيضًا عند الجماعات الأصلية في أمريكة الشمالية.

والطريقة الوحيدة للنجاة من هذه المرحلة الكارثية لرأس المال تتمثل في إخضاع السكان إلى نظام تربوي يؤصل للوحشية ويجعلهم أكثر مناعة وأقل حساسية تجاه الكارثية واللاإنسانية. وتُعتبَرُ عملية تفكك المُجتمع الاستعماري الحديث هذه عملية عالمية؛ إذ إن ما يحدث في أمريكة اللاتينية يحدث في غيرها، وبهذا تكون أمريكة اللاتينية الآن؛ المرآة المنظورة لانهيار رأس المال حول العالم.

وقد نفَت ماريا لوغونيس **Maria Lugones** فيما بعد، مركزية الأبوية والنوع الاجتماعي/الجندر التي تقترحها سيغاتو، لأنّ النوع الاجتماعي/الجندر بالنسبة للوغونيس لم يكن له وجود في مجتمعات السكان الأصليين، ولا تُفرّق لوغونيس بين الأنظمة الأبوية، كما لا تضعُ النظام الأبوي في قلب المُجتمع في الحالات التي يبدو فيها أنّه لا وجود لعدم التكافؤ في علاقات القوة بين الرجال والنساء، ولهذا، ترى لوغونيس أن تحليل العلاقات بين الرجال والنساء من السكان الأصليين قبل التدخل الاستعماري وبعده واستعمال النوع الاجتماعي/الجندر بوصفه مقولة تحليلية هو حركة تُماثل الحركة الاستعمارية، ومع ذلك، فقد شكّل التجريد من الإنسانية الذي أدخله المنطِق العُنصري إلى النسيج الاجتماعي للمُستعمَرة المعنية نظامًا جديدًا، وأصبحت نساء المستعمِرين في هذا النظام الجديد حاملات لطبقة جديدة هي النوع الاجتماعي/الجندر، وهي الطبقة التي أعادت إنتاج النظام الاجتماعي والبيولوجي للمستَعمَرة، وهكذا، استمدت لوغونيس مفهوم استعمار النوع الاجتماعي/الجندر من مفهوم استعمار السُلطة لكيخانو، أمّا نساء السكان الأصليين والنساء المُستعبدات الإفريقيات (**وحتى الرجال**)، فقد أُنقِصوا إلى مجرد دوابٍ للخدمة؛ تستطيع العمل حتى الموت، إذ كانوا عُرضَةً للاغتصاب والانتهاك، فقد كانوا بلا جِنس، وبلا نوع اجتماعي/جندر أيضًا، أي أنهم ببساطة لم يكونوا جزءًا من المُجتمع الانساني، ولذلك، ترى لوغونيس أنّ فقدان مكانة اجتماعية/جندرية مُحترمة لم يكن السبب في سُقوط مجتمع السكان الأصليين؛ بل يكمن السبب في التجريد من الإنسانية،

والعُنف، وتمزق الرابط الجماعي المُشترك الذي أحدثه الغزو، وكما كان الحال مع العِرق عند كيخانو، فقد كان النوع الاجتماعي/الجندر في هذه الحالة من العوامل المُشاركة في تأسيس المُجتمع الاستعماري الذي يُقسم الإنسانية إلى آدميين، وتحت-آدميين، وغير آدميين.

ورغم أنّ الحجج التي تستخدمُها سيغاتو ولوغونيس تبدأ من غزو أمريكة، فإن تصورهما ونطاقهما كونيٌ وشامل، إذ تَرَيَا العالم من عدسة مذبحة ١٤٩٢، وهكذا، تنتهج كل منهما تقليدًا نقض استعماري يعتمدُ عليه جزء من خطابها، ومع ذلك، فإنهما تختلفان عن توك ويانغ وسميث اللاتي يحصرن سردياتهن في تجربة أمريكة الشمالية، حتى وإن بدأن أيضًا من سنة ١٤٩٢، ومثل وولف وفيراسيني، فإنّ الاستعمار الإيبيري يقع تمامًا خارج المعايير التحليلية لتوك ويانغ وسميث؛ إذ مايزال تصورهن يُظهر بعض علامات الإقليمية والمركزية الأنجلوفونية، وهذا ما نجده عند توك ويانغ أكثر من سميث، ورغم ذلك، فإنهن يتصورن العلاقات بين النساء والرجال في مجتمعات السكان الأصليين كما تتصورها لوغونيس، أي باعتبارها قائمة على المُساواة قبل قُدوم الاحتلال، وفي الواقع، تأخذ لوغونيس العديد من أفكارها من نسويات أمريكة الشمالية المنتميات إلى السُكان الأصليين لتصِل إلى نتيجة مفادها عدم وجود النوع الاجتماعي/الجندر في مُجتمعاتهن، إنّ العُنف الجنسي بالنسبة لتوك ويونغ وسميث هو وسيلة احتلال تُضاهي العِرق وتُعد ضرورية مثله، كما ترى سيغاتو ولوغونيس أيضًا، إذ ترى سميث أنّ الاستعمار الاستيطاني يعملُ بمنطق العُنف الجنسي، أو من الأفضل أن نقول: إنّ منطق التصفية مبني على أساس منطق العُنف الجنسي، كما تُعتَبَرُ المرأة من السكان الأصليين هدفًا للعُنف الذي يمُارسُهُ المستوطنُ الغاصب الساعي إلى استئصال سلالة السكان الأصليين، إذ إنّ القضاء على الأمومية، واعتماد الأبوية الغيرية، والتدهور السياسي للنساء من السكان الأصليين، كان وما يزال ضروريًا لاختفاء الشعوب الأصلية، ومُصادرة

أراضيهم، كما أنّ إدراج هويات جديدة مُضطهِدة ومضطَهَدة؛ هو ما سمحَ بالتفكيك الداخلي لجماعات هذه الشعوب، ويُمكنُ القول إنّ قبول الرجال أدوارهم الجديدة بوصفهم مضطهِدِين للنساء في الشعوب الأصلية أسهم في الحفاظ على الأبوية الغربية في جماعاتهم، ولهذا السبب، يُعد تحليل العُنف الجنسي والأبوية أساسيان في أي مشروع لنقض الاستعمار، وكما تقول ماريا غاليندو **Maria Galindo** من بوليفيا: إنّ نقض الاستعمار **decolonization**؛ لا يتحقق دون نقض الأبوية **depatriarchalization (Galindo 2014)**[32].

وتُركز كل من توك ويانغ وسميث؛ على منطق الإبادة والتصفية في الاستعمار الاستيطاني، كما يُشرْن إلى شكل الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا بوصفه شكلًا غير شرعي، ولا يجدر بالشعوب الأصلية المطالبة بالإدماج فيه.

وعلى هذا النحو، تتبع هؤلاء المُنظرات السياسات المُمنهجة لنظريات الاستعمار الاستيطاني الخاصة بوولف وفيراسيني حرفيًا، ولكنهن يُدرِجن تحليلًا نسويًا يُعيد الاعتبار إلى العُنف الجندري والسُلطة الأبوية، وهو ما يغيب في تحليل كل من وولف وفيراسيني، ومع ذلك، فأحد أعظم إسهاماتهن هو إدراج العامل الاستعماري في تحليلات النسوية الناطقة بالانجليزية، والتي ما زالت تعترف حتى الآن بشرعية الدولة الاستيطانية الغاصِبة، كما قدّمت المنظرات النسويات أيضًا نقدًا للدولة الاستيطانية الغاصِبة، وسياسات إدماج بعض الشرائح الإفريقية الأمريكية، وحركات الهجرة الاجتماعية، إذ إن كلاً من سميث وتوك ويانج ترى أن الولايات المتحدة دولة غير شرعية، ويريْن أنّ حق العودة إلى الأرض واسترداد السيادة وإعادة تشكيل

---

[32] Maria Galindo, *A Despatriarcar: Feminismo Urgente* (La Paz, Bolivia: Lavaca Editora, 2014).

جماعة السكان الأصليين هي المطالب الرئيسية في سياستهن القائمة على نقض الاستعمار، ويعتمد كل ذلك على استعادة النساء لاستقلاليتهن وسلطتهن السياسية، وهكذا، تُحاجِجُ توك ويونغ بأنه دون المطالبة باسترداد الأرض والسيادة والجماعة، ستبقى الدعوة إلى نقض الاستعمار مجرد استعارة.

وهذه الأفكار الخاصة بنقض الاستعمار، هي التي ستُفرق بين مجالي الاستعمار الاستيطاني، ونظرية نقض الاستعمار.



٥. نقض الاستعمار/الديكولونيالية: تصورات مُتضاربة

أُريدُ أن أختم ببعض التعليقات حول التصورات المُختلفة التي تحملها هذه النظريات فيما يخص نقض الاستعمار، فكما رأينا حتى الآن، فإنّ الاستعمار الاستيطاني مدفوع برغبة استرداد الأرض والسيادة، ونقد توك ويانغ وسميث للدولة الاستعمارية الغاصبة عميق ويُسائل شرعية استمرارية هذه الدولة، ومُستقبل الشعوب الأصلية يعتمد على هذه الإنجازات في جبهات الصراع، ومن المُمكن أن يضم نقض الاستعمار قضايا أخرى أيضًا، مثل الصِراع ضد الرأسمالية، والدمار البيئي، وإعادة إحياء معرفة الأجداد، وتشكيل سيادة الشعوب المشتتة في المُدن، ومع ذلك، فإن نقض الاستعمار لا يعني شيئًا بدون استرداد الأرض والسيادة الكاملة، وفي مجال نظرية نقض الاستعمار، لم تكن عودة الأرض ولا إسقاط الدولة من أولوياتها، ولا أعني بهذا أنه لم يُوجَه أي نقد لدولة **الميستيزو-كريولو**، أو أنّ حماية أراضي السكان الأصليين تقع خارج الأجندة السياسية، ولكن، لم يكن هذا هو القوة الدافعة للنظرية أيضًا، ربما لأن هذه النظرية لم تُكتب من قِبل الشعوب الأصلية في حد ذاتها، بل كُتبت في الغالب من قِبل أولئك الذين تختلط أصولهم، أو الأمريكيين اللاتينيين البيض.

وإذا قرأنا لكيخانو ومؤلفي نقض الاستعمار الآخرين مثل والتر مينيولو **Walter Mignolo** وكاثرين والش **Walsh Catherine**، سنرى أن نقض **الاستعمار/الديكولونيالية** يُفهمُ من زاوية معرفية

(إبستيمية)(**2018**[35]**,2000**[34]**,2011**[33])، فكلٌ من كيخانو ومينيولو يركزان على الدور المشؤوم الذي لعبته المركزية الأوروبية في استعمار المعرفة؛ إذ لا تستعمر هذه المركزية الأراضي والأجساد فحسب، بل تستعمر فهمنا للعالم وحسّنا الوجودي أيضًا، وقد استعمرت المركزية الأوروبية الزمان والمكان، وتجاهلت الأنطولوجيات المُختلفة للتنوع البشري، وقضت على المعارف التي تركها الأسلاف في الشعوب الأصلية، وبالنسبة لمؤلفي نقض الاستعمار، وقد تكون بالنسبة لمينيولو أكثر من كيخانو، يكمن **نقض الاستعمار** في استرداد الحُقوق المعرفية، والقضاء على المركزية الأوروبية، ونقض التغريب (**Mignolo 2011**)، كما يكمن أيضًا -**إلى حد ما**- في إعادة إضفاء الهوية الهندية على المُجتمع **re-indianization**، ويُخبرنا هؤلاء أن نقض الاستعمار معرفيًا سيقودنا إلى نقضه مجتمعيًا؛ إذ إن نقض الاستعمار في المُجتمع لا يُمكن أن يسبق نقض الاستعمار معرفيًا؛ وسبب ذلك أن المعرفة تحررنا، إنها تُنهي استعمارنا.

---

[33] Walter D. Mignolo, *The Darker Side of Western Modernity* (Durham & London: Duke University Press, 2011).

والتر مينيولو، الجانب المُظلم من الحداثة الغربية.

[34] Walter D. Mignolo, *Local Histories/Global Designs. Coloniality, Subaltern Knowledges, and Border Thinking* (Princeton: Princeton University Press, 2000).

والتر مينيولو، **تواريخ محلية/تصاميم عالمية**. الاستعمار، المعارف التابعة، والتفكير الهامشي.

[35] Walter D. Mignolo and Catherine E. Walsh, *On Decoloniality: Concepts, Analytics, Praxis* (Durham: Duke University Press Books, 2018).

والتر مينيولو وكاثرين والش، في نقض الاس، مفاهيم، تحليلات، تطبيق.

ومن المُثير للاهتمام، في الوقت نفسه، أن نُشير إلى أنه رغم مركزية العِرق في نظرية نقض الاستعمار، فإن التحليل الخاص بعلاقات العِرق في أمريكة اللاتينية شحيح جدًا؛ إذ ليس هناك أي تحليل دقيق وخاص بمن تختلط أصولهم، كما أنه ليس هُناك أي تفكر ذاتي مُناسب حول مكانة الكاتب في التعبير في النظام العِرقي، إنّ مؤلفي نقض الاستعمار يمُوقعُون أنفسهم في التاريخ الاستعماري جيوغرافيًا وتاريخيًا، لكنهم لا يخوضون في مواقعهم العِرقية الخاصة، وعبارة مينيولو التي يقول فيها «**أنا أنتمي إلى حيث أفكر**»؛ توحي بالكثير (**1999**)[٣٦]، ولكنها لا تصل إلى الموضع الذي يُعالجُ التمييز العِرقي، كما يبدو أنه لا يوجد أي تفريق بين منزلة السكان الأصليين والسود، والمختلطين عرقيًا والبيض؛ إذ تبدو منزلتهم على حدٍّ سواء، وعلى غرار ذلك، تُظهِر نظرية نقض الاستعمار أنها ما تزال تعمل ضمن مقولات تحليلية أُحادية مثل «**الساكن الأصلي**» أو «**الإفريقي العبد**»، كما لا تأخذ الجوانب المتعددة بعين الاعتبار، فغياب الذين تختلط أصولهم من التحليل والتركيز على المقولات الأُحادية غريب، نظرًا للنقد الذي يخص مفهوم المقولة التحليلية نفسه، وهو التحليل نفسه الذي تنتهجه نظرية نقض الاستعمار، وأقول هذا لأنه من الظاهر أنّ اضطراب مؤلفي نقض الاستعمار في النظام العِرقي في أمريكة اللاتينية -**بمن فيهم المنظرات النسويات مثل سيغاتو ولوغونيس**- هو الذي يحدد نوع مشروع نقض الاستعمار المُقترح، فإننا لا ننظر في تورطنا في استعمار السُلطة، ولا نسائلُ وجودنا على الأرض التي نقطنها، بل نعتبره أمرًا بديهيًا، وعلى الرغم من أن الدولة

[36] Walter D. Mignolo, “I am Where I Think: Epistemology and the Colonial Difference,” *Journal of Latin American Cultural Studies* 8, no. 2, (1999), 235–45

والتر مينيولو، "**أنا حيث أفكر، الابستمولوجيا والاختلاف الاستعماري**".

القومية تُعتَبر نتيجةً للاستعمار، فإننا لا نُطالب بسقوطها؛ وحتى الآن، لم يكن هذا المطلب من الأولويات أبدًا.

عند هذه النقطة، يصبح الاستعمار الاستيطاني هو الرائد، ومع ذلك، فعلى منظري الاستعمار الاستيطاني أن يتخلوا عن إقليميتهم ومركزيتهم الأنجلوفونية بالمُقابل، لكي يتسنى لهم فهم تاريخهم، وعليهم أن يفعلوا هذا ليس لفهم تاريخهم فقط، بل ليتمكنوا من مُواصلة مشروعاتهم لنقض الاستعمار، إذ إن القضاء على الاستعمار يطال العالم وليس محصورًا في بلد واحد، أو منطقة واحدة، أو مجموعة إثنية معينة، إنّ عملية **نقض الاستعمار/الديكولونيالية** عابرة للحدود، إنها عالمية ويجب أن تكون شاملة.





١٤٤٤-٢٠٢٢